

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد الرابع عشر

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

حقوق الطب مع محفوظة للمؤلف

إلا لمن أراد طبعه وتوزيعه

مجاناً

بعد أخذ الإذن من المؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي

للطباعة والتجليد

٠٠٢٠١٠١٩٩٩٥٥٥

وقف الله تعالى
ولا يجوز بيعه

وقفات ترويحية
ولا يجزي زبوعه
وقفات لله تعالى

سلسلة
وقفات ترويحية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد الرابع عشر

يوم تبدل اللبائس

[سورة الطارق: ٩]

عبد العزيز بن ناصر المجليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

وبعد:

فإن من تأمل الشريعة الإسلامية في مصادرها ومواردها علم ارتباط الأعمال الظاهرة بأعمال القلوب، التي هي الأعمال الباطنة، والتي لا تنفع أعمال الجوارح دون تصحيحها وتطهيرها، فأعمال القلوب وإصلاح السرائر أوجب على العبد من أعمال الجوارح، فبصلاح القلوب والسرائر تصلح الظواهر وبفسادها تفسد. قال صلى الله عليه وسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

(١) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩).

وهل تتميز حقيقة المؤمن الصادق عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال والأحوال، إذ إن عبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح، والقلوب هي محل نظر الله ﷻ وبها يتفاضل الناس عند ربهم ﷻ، وعليها مدار القبول أو الرد عند الله ﷻ.

والناس في عنايتهم بالبواطن والظواهر طرفان ووسط:

طرف صرفوا همهم إلى إصلاح أعمال الجوارح والظواهر وأقاموها على ما جاء عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ مع إهمال منهم وعدم اعتناء بأعمال القلوب والسرائر، فضعفت عبودية قلوبهم. وطرف صرفوا الهمم إلى أعمال القلوب مع إهمال لأعمال الجوارح فضعفت عبودية جوارحهم أو فسدت.

والوسط: وهم العارفون المؤمنون بربهم ﷻ، المتبعون لنبيهم ﷺ ولطريق السلف الصالح، القائمون لله ﷻ بعبودية الجوارح وعبودية القلوب والسرائر، وقدموا إصلاح السرائر على غيرها وجعلوا الأعمال الظاهرة تبعاً لعبودية القلب، وهذه هي العبودية الصادقة الكاملة.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (وهل الأعمال الخالية عن عمل القلب إلا بمنزلة حركات العابثين وغايتها أن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب. ولما رأى بعض أرباب القلوب طريقة هؤلاء انحرف عنها إلى أن صرف همه إلى عبودية القلب وعطل عبودية الجوارح، وقال: المقصود قيام القلب بحقيقة الخدمة والجوارح تبع. والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل. هؤلاء لا التفات لهم إلى عبودية قلوبهم، ففسدت عبودية جوارحهم. والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهراً وباطناً، وقدموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعاً لها، فأقاموا الملك وجنوده في خدمة المعبود. وهذا هو حقيقة العبودية)^(١).

ومن تأمل أحوال السلف الصالح وجد العناية الشديدة منهم بإصلاح السرائر وتنقيتها من الآفات والشوائب التي تفسدها. والعكس من ذلك حينما ننظر إلى أحوالنا اليوم، حيث الإهمال والغفلة عند كثير من الناس عن القلوب وإصلاحها، ونسيان السرائر وتنقيتها، الأمر الذي ترتبت

(١) بدائع الفوائد: (٣/١٦٢-١٦٣).

عليه آثار سيئة وأمراض فتاكة في الأمة على مستوى الفرد والجماعة.

والسريرة أمرها عظيم وشأنها خطير ولو كشفت سريرة أحدنا للناس لرأوا التباين بين الظاهر والباطن، ولما استطاع أن يعيش بين الناس وهو مفضوح السريرة. فكيف وهذه السريرة لا تخفى على الله ﷻ ولو خفيت على الناس، حيث السر عنده ﷻ علانية، وخفايا القلوب له بادية، فالحمد لله على ستره.

وقد حذرنا الله ﷻ من يوم تبدو فيه السرائر وتختبر، وتتكشف فيه البواطن وتمتحن، فيظهر ما فيها من الإخلاص والمحبة والصدق واليقين، أو ما يضاد ذلك من النفاق والكذب والرياء، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

فحريٌّ بمن خاف مقام ربه ﷻ أن يعد لهذا اليوم عدته ويسعى ما دام في زمن المهلة إلى إصلاح سريرته وسلامة قلبه، لعله ينجو من الخزي والفضيحة والعقوبة يوم

القيامة، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى
 اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿الشعراء: ٨٨-٨٩﴾.

ومن علامة توفيق الله ﷻ للعبد أن يوفقه إلى إصلاح
 سريرته ويشغله بإصلاح باطنه وتطهيره من الآفات
 والصفات الذميمة: كالحسد والرياء والعجب والكبر
 والحرص على الشهرة والظهور وغير ذلك من الآفات. ومن
 علامات حرمان التوفيق للعبد أن ينشغل بغيره عن نفسه، أو
 يشغله بإصلاح ظاهره عن إصلاح سريرته.

أهمية الموضوع:

تشتد الحاجة إلى طرح هذا الموضوع وتظهر أهميته من
 خلال الأمور الآتية:

* الأمر الأول:

انفتاح أبواب الفتن في هذا الزمان على مصراعيها،
 سواء كانت فتن شبهاة أو شهوات، وذلك بما جد في هذا
 العصر من وسائل متنوعة تفتن الناس عن دينهم، أو من غلبة

الدنيا وشهواتها والتنافس فيها وانفتاحها الشديد على الناس، مما تكدرت بسببه القلوب، وغفلت به عن الآخرة وعشعش فيها آفات كثيرة أفسدت السرائر وأظلمت بسببها البواطن عند كثير من الناس، فهذا آفته الحسد والغل على أخيه أو قريبه المسلم، وآخر آفته الرياء وحب الظهور والمناصب والشهرة، وثالث آفته الكبر والعجب وحب التعالي على الناس. فإذا كان الحذر مطلوباً في كل وقت من الفتن التي تعرض على القلوب وتفسد السرائر، فإن الحذر يجب أن يكون أشد في هذه الأزمنة، التي تموج فيها الفتن كموج البحر، كما يجب أن يتنادى المصلحون والدعاة، ويهتموا بإصلاح ما فسد من السرائر في أنفسهم وفي نفوس من تحت أيديهم من أولادهم وطلابهم، وأن يولوا ذلك العناية الشديدة في مناهج التوجيه والتعليم.

* الأمر الثاني:

إن أساس التفاضل بين العباد في أعمالهم هو ما يقوم في القلوب من سريرة صالحة، تنطلق من الإخلاص والمحبة لله ﷻ، والتعظيم له ﷻ، ولأوامره ونواهيه. ولذا قد يشترك

اثنان في عبادة واحدة: كالصدقة أو الصلاة أو الصيام أو الحج أو الجهاد أو الذكر، ويكون بينهما في الفضل والقبول عند الله ﷻ كما بين السماء والأرض، وذلك حسب ما قام في السريرة عند أداء هذه العبادة. ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (والله يضاعف ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيثار والإخلاص والتثبوت عند النفقة)^(١).

بل إن المعصية قد تكون كبيرة أو صغيرة بحسب ما يقوم بالقلب من تعظيم أمر المعصية، والحياء من الله ﷻ، أو عكس ذلك من الاستهانة بالمعصية وقلة الحياء وعدم المبالاة، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن (الكبيرة) قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها،

(١) أعلام الموقعين: (١/٢٣٨).

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب. وهو قدر زائد على مجرد العقل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره^(١).

* الأمر الثالث:

بالنظر إلى ما يحصل اليوم من التفرق والخصومات بين الناس، ولا سيما في أوساط بعض الدعاة وطلاب العلم نجد أنه في كثير من الأحوال إنما يعود إلى أهواء في القلوب وفساد في السرائر، يخفيها أصحابها ولكنها لا تخفى على علام الغيوب. فكان لزاماً على المؤمن المتعبد لربه ﷻ بالدعوة إليه والجهاد في سبيله أن يحذر هذه الدسائس الخفية، ويسعى إلى تطهير القلب منها، حتى يكتب لدعوته وجهاده القبول عند الله ﷻ والأثر الطيب في الواقع بين الناس.

* الأمر الرابع:

ما ظهر في زماننا من فشو للشبهات والشهوات تبث عن طريق وسائل الإعلام المتنوعة ضعف بسببها تعظيم النصوص، والتسليم لخبر الله ﷻ وأمره في كثير من القلوب، ترتب عليها

(١) مدارج السالكين: (١/٣٢٨).

آفات قلبية باطنة خطيرة من أخطرها تلك الاعتراضات التي تحيك في الصدور إزاء ما ورد في الكتاب والسنة من أخبار أو أوامر شرعية أو ما يجري في هذا الكون من أقدار الله وأحكامه الكونية، فكان لزاماً علينا أن نعتني بسرائرنا وتنقيتها من هذه الاعتراضات والخواطر الرديئة التي يعلمها علام الغيوب وإن غابت عن الناس، وقد تجتث إيمان العبد من جذوره والعياذ بالله تعالى.

* الأمر الخامس:

وتأتي أهمية السرائر وأعمال القلوب أيضاً من كونها الأساس في الإيمان والكفر والنفاق، وذلك حسب ما يقوم في القلب من هذه الأوصاف. وهذا بدوره يؤثر في حسن الخاتمة وسوءها، حيث ترتبط الخاتمة حسناً وسوءاً بصلاح السريرة أو فسادها، وكم أقض حسن الخاتمة وسوءها مضاجع السلف! وحرِّيُّ بأمر هذه خطورته وأهميته أن يهتم به وي طرح للمناصحة والتذكير والمحاسبة.

* الأمر السادس:

ومع أهمية هذا الموضوع في قبول الأعمال أو ردها، وفي حسن الخاتمة وسوئها، وقوة الإيمان من ضعفه، إلا أن الكتابة في هذا الموضوع قليلة ومتناثرة هنا وهناك، كما أن الاهتمام به في حلقات العلم والدروس والمحاضرات لا يزال ضعيفاً جداً ولا سيما في أوساط العلوم الأكاديمية والجامعات، حيث ينصب التركيز على العلوم المجردة وملء الأذهان بها دون العناية بآثارها القلبية، وثمارها في صلاح السرائر والظواهر. ولا نبرئ من هذا الإهمال بعض حلق العلم وبرامج التوجيه والتربية المختلفة.

ومن أجل هذا وما قبله من الأمور التي ذكرت في أهمية الموضوع تأتي هذه الرسالة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم لعلها أن تسد بعض النقص في هذا الموضوع الجليل. نسأل الله عز وجل أن يصلح ما فسد من قلوبنا وأن يصلح لنا السريرة والعلانية. إنه سميع مجيب

وبعد هذه المقدمة يحسن ذكر أهم فصول الكتاب.

- الفصل الأول: المقصود بالسريرة وصلاحها.
- الفصل الثاني: الآيات والأحاديث والآثار الواردة في العناية بالسرائر.
- الفصل الثالث: من علامات صلاح السريرة وفسادها.
- الفصل الرابع: من ثمرات صلاح السريرة.
- الفصل الخامس: الأسباب المؤدية إلى صلاح السريرة.
- الخاتمة.



إِقْصَابُ الْأَوْثَانِ

المقصود (بالسريرة) وصلاحها

أولاً: تعريف السريرة:

قال في لسان العرب: (السر: من الأسرار التي تكتُم. والسر: ما أخفيت، والجمع أسرار، والسريرة كالسر. والجمع السرائر، والسر ما أسررت به. والسريرة: عمل السر من خير أو شر.

وأسر الشيء: كتمه وأظهره، وهو الأضداد. سررته: كتمته. وسررته: أعلنته، والوجهان جميعاً يفسران في قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ [سبأ: ٣٣] (١).

ومن خلال هذا التعريف نستطيع القول إن:

السريرة: هو ما يكتمه المرء ويخفيه في نفسه من خير أو شر.

(١) لسان العرب: (٣/١٩٨٩).

ثانياً: السيرة الصالحة:

ورد ذكر السيرة الصالحة في كتاب الله ﷺ باسم (القلب السليم)، تعبيراً بالمحل عن الحال قال الله ﷻ في معرض ذكره لدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩]. ومدح الله ﷻ خليله بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصفوات: ٨٤].

ولا يكون القلب سليماً والسيرة صالحة حتى يتحلى بصفات ويتخلى عن صفات. يتحلى بالأعمال والاعتقادات القلبية الباطنة التي يحبها الله ﷻ، ويتخلى عن الأعمال القلبية والاعتقادات التي يبغضها الله ﷻ.

يصف الشيخ السعدي رحمه الله تعالى القلب السليم بقوله: (والقلب السليم معناه: الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهو اه تابِعاً لما جاء عن الله) (١).

(١) تفسير السعدي عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]

وقد وضع الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تعريفاً جامعاً مانعاً للقلب السليم ترجع إليه جميع الصفات والأعمال القلبية.

ولأهمية هذا التعريف فقد كرره في أكثر من موطن. في مدارج السالكين وفي كتاب مفتاح دار السعادة، وفي كتابه الفوائد، ومواطن أخرى.

فقال في منزلة (التسليم): (اعلم أن «التسليم» هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم، الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به)^(١).

وفي منزلة (المراقبة) وما توجب على العبد قال رحمه الله تعالى: (وهي - أي المراقبة - توجب صيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر بحفظ الحركات الظاهرة، وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفض معارضة أمره وخبره، فيتجرد الباطن من كل شهوة

(١) مدارج السالكين: (٢/١٤٧).

وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته، ومن كل شبهة تعارض خبره، ومن كل محبة تراحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين، وكل تجريد سوى هذا فناقص. وهذا تجريد أرباب العزائم^(١).

ولو تأملنا سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لرأينا حياة عظيمة كريمة، ملؤها الطهر والصفاء والتسليم، ومنبعها صلاح السريرة وسلامة القلب المتمثل بتجريد المحبة والتسليم والإخلاص والخوف والرجاء لله ﷻ. وعلى رأس هذه القافلة المباركة من أنبياء الله ﷻ ورسله خليله إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقد قص الله ﷻ علينا في كتابه الكريم نماذج من تسليم إبراهيم عليه السلام لربه، استحق من ربه ﷻ وصفه له بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصفات: ٨٤]. ومن أعظم هذه النماذج ما قصه الله ﷻ عنه عليه الصلاة والسلام حينما أمره بذبح ابنه الحبيب إلى قلبه الذي جاءه في آخر عمره وعلى حين

(١) مدارج السالكين: (٢/٦٨).

فاقة وحاجة للولد. قال الله ﷻ: ﴿فَبَشِّرْنَهُ بَعْلَمٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١)
 فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يُبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
 فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَابَتِ أَعْلَىٰ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِن
 الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا بَرَاهِيمُ
 ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿﴾ [الصفات: ١٠١-
 ١٠٥]. فظهر من هذه القصة تسليم الأب وابنه ﷺ لأمر الله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عن هذا التسليم العظيم
 من إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام: (لقد أسلما..
 فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة
 وطمأنينة ورضى وتسليم.. وتنفيذ.. وكلاهما لا يجد في نفسه
 إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم.

إنها ليست الشجاعة والجرأة. وليس الاندفاع
 والحماسة. لقد يندفع المجاهد في الميدان، يقتل ويقتل. ولقد
 يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود، ولكن هذا كله
 شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر.. ليس
 هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي
 وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام

الواعي المتعقل القاصد المرید، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضى الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا. كانا قد أسلما. كانا قد حققا الأمر والتكليف. ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه.. وهذا أمر لا يعنى شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما..^(١).

أما خليله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فيكفيه ثناء الله ﷻ له بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهذا يشمل الأخلاق الباطنة والظاهرة.

ثم يأتي بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في صلاح السريرة وسلامة القلب الصديقون، وعلى رأسهم صديق الأمة الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي ظهر صلاح سريرته وصفاء باطنه في مواطن كثيرة من حياته، منها موقفه من

(١) في ظلال القرآن: (٥/٢٩٩٦).

دعوة النبي ﷺ ومسارعته إلى أن يكون من أول الداخلين في الإسلام، ومنها مبادرته رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى تصديق الرسول ﷺ في إسرائه إلى المسجد الأقصى وعروجه إلى السماء ورجوعه إلى المدينة في ليلة واحدة في وقت ارتابت فيه قلوب كثيرة وأجلب المشركون يشككون في صدق الرسول ﷺ.

ومن أجل هذا التسليم واليقين، قال أبو بكر المزني رحمه الله تعالى: (ما فاق أبو بكر رَحِمَهُ اللَّهُ أصحاب محمد ﷺ بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء كان في قلبه). قال ابن علية معلقاً على هذا القول: (الذي في قلبه الحب لله ﷻ والنصيحة في خلقه)^(١). ورفعهم بعضهم بلفظ «ما فضل أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه» ذكره الغزالي في الإحياء. وقال العراقي: لم أجده مرفوعاً، وهو عند الحكيم الترمذي في النوادر من كلام بكر بن عبدالله المزني. وفي لفظ: (ما فاتكم أو فضلكم أبو بكر بكثير صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره. وكل ذلك لم يصح مرفوعاً، والله الموفق. وقال الفضيل بن عياض: (ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة

(١) انظر غذاء الألباب: (١/٤٨).

والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة^(١).

والمقصود مما سبق بيان حقيقة القلب السليم، وحقيقة السريرة الصالحة، وأنها تقوم على التحلي والتخلي. التحلي بالأعمال والاعتقادات القلبية الصالحة التي هي أساس صلاح الأعمال الظاهرة، والتخلي عن الأعمال والاعتقادات القلبية الفاسدة والسلامة من الاعتراضات التي تفسد على القلب تسليمه لخبر الله ﷻ في كتابه وخبر رسوله ﷺ في السنة الصحيحة وتفسد عليه تسليمه لأمر الله ﷻ الشرعي وأمره القدري، وسلامته من الإرادات الفاسدة التي تفسد عليه محبته وإخلاصه وتوكله وخوفه ورجاءه الله تعالى.

وقد فصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أنواع الاعتراضات السارية في قلوب الناس، وذلك بقوله: (و«الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها).

(١) المرجع السابق.

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة، التي يسميها أربابها قواطع عقلية. وهي في الحقيقة خيالات جهلية، ومحالات ذهنية اعترضوا بها على أسمائه وصفاته ﷺ، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجلها ما أثبتته لنفسه، وأثبتته له رسوله ﷺ، وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه، وعادوا بها أوليائه، وحرّفوا بها الكلم عن مواضعه، ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به، وتقطّعوا لها أمرهم بينهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي. فإذا سلم القلب له رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السمع والعقل والفطرة، وهذا أكمل الإيمان. ليس كمن الحرب قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره. وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع:

أحدها: المعارضون عليه بأرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرم الله ﷻ، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه،

وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله،
واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق
ما قيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة
على ذمها، والتحذير منها. وصاحوا على أصحابها من أقطار
الأرض، وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

النوع الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع
بالأذواق والمواجيد والخيالات، والكشوفات الباطلة
الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه
الذي شرعه على لسان رسوله، والتعوض عن حقائق الإيمان
بخدع الشيطان، وحظوظ النفوس الجاهلة.

والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحظوظ. وكل
ما هم فيه فحظ، ولكن حظهم متضمن مخالفة مراد الله،
والإعراض عن دينه، واعتقاد أنه قربة إلى الله. فأين هذا من
حظوظ أصحاب الشهوات، المعترفين بدمها، المستغفرين
منها، المقربين بنقصهم وعييهم، وأنها منافية للدين؟.

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها ديناً، وقدموها على شرع الله ودينه. واغتالوا بها القلوب. واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمة، ويحميه من كيد من يكيد.

النوع الثالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة،
 التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله،
 وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.
 فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل.
 وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس قدمنا
 القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض
 الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق
 والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع، قدمنا السياسة. فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتا يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل، ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع. ولنا السياسة. فيالها من بلية، عمّت فأعمّت، ورزية رمت فأصمت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت، فصمّت منها الآذان، وعميت بها العيون. عطلت لها -والله- معالم الأحكام، كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام. واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

الاعتراض الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره. وهذا اعتراض الجهال.

وهو ما بين جلي وخفي، وهو أنواع لا تحصى. وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم. ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لرأى ذلك في قلبه عياناً. فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله، إلا نفساً قد اطمأنت إليه، وعرفته حق المعرفة، التي يمكن وصول البشر إليها. فتلك حظها التسليم والانقياد، والرضى كل الرضا^(١).



(١) مدارج السالكين: (٢/ ٦٩-٧٠).

إِفْطِيحُ الثَّانِي

ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في العناية بالسرائر

أولاً: ذكر بعض الآيات الواردة في ذلك:

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾

[الطارق: ٨، ٩].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (قال مقاتل: تظهر وتبدو. وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه. والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله، فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: يبدي الله يوم القيامة كل سر، فيكون زينا في الوجوه، وشيناً فيها. والمعنى تختبر

السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسيرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها^(١).

ويقول الطبري رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (عن قتادة ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّرَائِرُ﴾) إن هذه السرائر مختبرة فأسروا خيراً أو أعلنوه إن استطعتم ولا قوة إلا بالله^(٢).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (إنه - الله الذي أنشأه ورعاه - إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت، وإلى التجدد بعد البلى، تشهد النشأة الأولى بقدرته، كما تشهد بتقديره وتدبيره. فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب

(١) بدائع التفسير: (٨٥ / ٥).

(٢) تفسير الطبري: (٣٥٩ / ٢٤).

كلها عبثاً إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.. السرائر المكنونة، المطوية على الأسرار المحجوبة.. يوم تبلى وتختبر، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر، وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفة بالسواتر! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر: ﴿فَأَلَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.. ما له من قوة في ذاته، وما له من ناصر خارج ذاته.. والتكشف من كل ستر، مع التجرد من كل قوة، يضاعف شدة الموقف، ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير، وهو ينتقل من الكون والنفس، إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة، إلى نهاية المطاف هناك، حيث ينكشف ستره ويكشف سره، ويتجرد من القوة والناصر^(١).

الآية الثانية:

مر بنا قوله ﷺ عن خليته إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

(١) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨٨٠).

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (ونستشف من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ مدى شعوره بهول اليوم الآخر، ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره. وهو النبي الكريم. كما نستشف من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ٨٨ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم، وإدراكه كذلك لحقيقة القيم. فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله لله، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض، وصفائه من الشهوات والانحرافات. وخلوه من التعلق بغير الله. فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة التي يتكالب عليها المتكالبون، وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير^(١).

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

(١) في ظلال القرآن: (٥/٢٦٠٤).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول، والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب. وفي الأثر: إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتهما كما بين المشرق والمغرب. فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل - لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله - عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق... وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(١).

وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله، وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحداً أن يحصل له مثله ممن بعدهم. وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور، وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس، وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة.

(١) البخاري: (٣٦٧٣)، مسلم: (٢٥٤٠).

وهذا مما يُعرف به أن أبا بكر رضي الله عنه لن يكون أحد مثله، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد. قال أبو بكر بن عيَّاش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه.

وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول، مؤمنين به مجاهدين معه، إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم^(١).

ويقول الشوكاني رحمه الله تعالى: (أي لن يصعد إليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التي تتصدقون بها، ولا دماؤها التي تنصب عند نحرها، من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ﴾. أي: يبلغ إليه تقوى قلوبكم، ويصل إليه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه)^(٢).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ

الْمُنْقِيْنَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(١) منهاج السنة: (٦/٢٢٢-٢٢٣) باختصار.

(٢) فتح القدير: (٣/٤٥٥).

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ
الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿[الأنعام: ١٢٠].

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى عند هذه الآية:
(يقول تعالى ذكره: ودعوا أيها الناس علانية الإثم وذلك
ظاهرة، وسره وذلك باطنه.

كذلك حدثنا بشر بن معاذ. قال: ثنا يزيد، قال: ثنا
سعيد، عن قتادة ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾. أي: قليله
وكثيره، وسره وعلانيته.

حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر،
عن قتادة ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾. قال: سره وعلانيته.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا حكام: عن أبي جعفر، عن
الربيع بن أنس، في قوله ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾. يقول:
سره وعلانيته، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾. قال: سره
وعلانيته^(١).

(١) تفسير الطبري: (٨/١٣-١٤)

ويقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (نهى الله ﷻ عباده عن اقرار الإثم الباطن، والظاهر أي: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب... وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي خصوصاً معاصي القلب: كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة)^(١).

الآية الخامسة:

قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩-١١].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (أي هلا علم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾. أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾. أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، ومجازيهم عليها، وخص خبره بذلك

(١) تفسير السعدي: (ص ٢٧١) المطبوع في مجلد واحد.

اليوم مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك الجزء على الأعمال الناشئة عن علم الله واطلاعه^(١).

الآية السادسة:

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۗ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يُسرّه، ويوسوس في صدره، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره)^(٢).

الآية السابعة:

قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾

[طه: ٧].

(١) تفسير السعدي: (ص ٩٣٣).

(٢) تفسير السعدي: (ص ٨٠٥).

أي: (يعلم ما خطر على القلب ﴿وَأَخْفَى﴾ مما لم يخطر يعلم أنه يخطر في وقته وعلى صفته)^(١).

الآية الثامنة:

قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

الآية التاسعة:

قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السموات والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت، فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلاً لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث

(١) المرجع السابق: (ص ٥٠٣).

رسول الله ﷺ، أو تصور وبحث في علم ينفعه أو نصح لعباد الله^(١).

الآية العاشرة:

قوله ﷺ في وصفه لصاحب السريرة الفاسدة: ﴿ وَمَنْ
النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي
قَلْبِهِ ۗ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ
فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿ [البقرة:
٢٠٤-٢٠٥].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (هذا
المخلوق الذي يتحدث، فيصور لك نفسه خلاصة من الخير،
ومن الإخلاص، ومن التجرد، ومن الحب، ومن الترفع،
ومن الرغبة في إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على
الناس.. هذا الذي يعجبك حديثه، تعجبك ذلاقة لسانه،
وتعجبك نبرة صوته، ويعجبك حديثه عن الخير والبر
والصلاح.. «ويشهد الله على ما في قلبه».. زيادة في التأثير
والإيحاء، وتوكيداً للتجرد والإخلاص، وإظهاراً للتقوى

(١) تفسير السعدي: (ص ١٢٨).

وخشية الله.. «وهو ألد الخصام»! تزدهم نفسه باللدد والخصومة، فلا ظل فيها للود والسماحة، ولا موضع فيها للحب والخير، ولا مكان فيها للتجمل والإيثار.

هذا الذي يتناقض ظاهره وباطنه، ويتنافر مظهره ومخبره.. هذا الذي يتقن الكذب والتمويه والدهان.. حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء، وانكشف المستور، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغي والحقد والفساد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.. وإذا انصرف إلى العمل، كانت وجهته الشر والفساد، في قسوة وجفوة ولدد، تتمثل في إهلاك كل حي من الحرث الذي هو موضع الزرع والإنبات والإثمار، ومن النسل الذي هو امتداد الحياة بالإنسال.. وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يعتمل في كيان هذا المخلوق النكد من الحقد والشر والغدر والفساد.. مما كان يستره بذلاقة اللسان، ونعومة الدهان، والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح.. «والله لا يحب الفساد».. ولا يحب المفسدين الذين ينشئون في الأرض الفساد.. والله لا تحفى عليه حقيقة هذا الصنف من الناس، ولا يجوز عليه الدهان والطلاء الذي قد يجوز على الناس في الحياة

الدنيا، فلا يعجبه من هذا الصنف النكد ما يعجب الناس الذين
تخدعهم الظواهر وتخفى عليهم السرائر^(١).

ثانياً: ذكر بعض الأحاديث الواردة في أهمية السرائر والعناية بها:

• الحديث الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى
قلوبكم»، وأشار بأصابعه إلى صدره^(٢).

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: (إن الأعمال
الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب
من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته... ومقصود الحديث
أن الاعتبار في هذا كله بالقلب)^(٣).

• الحديث الثاني: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: «... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح
الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي
القلب»^(٤).

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) مسلم: (٢٥٦٤).

(٣) شرح النووي لمسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله.

(٤) البخاري: (٥٢)، مسلم: (١٥٩٩).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى عند هذا الحديث:
(وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير
تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر
القلب والحث على صلاحه)^(١).

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح الحديث:
(فإذا صلح القلب صلحت إرادته وصلحت جميع
الجوارح، فلم تنبعث إلا إلى طاعة الله واجتناب سخطه،
فقنعت بالحلال عن الحرام. وإذا فسد القلب فسدت إرادته
ففسدت الجوارح كلها، وانبعث في معاصي الله عز وجل وما فيه
سخطه، بل أسرع في الحرام بحسب هوى القلب وميله
عن الحق، فالقلب الصالح هو القلب السليم الذي لا
ينفع يوم القيامة عند الله غيره، وهو أن يكون سليماً من
جميع ما يكرهه الله من إرادة ما يكرهه الله ويسخطه، ولا
يكون فيه سوى محبة الله وإرادته، ومحبة ما يحبه الله وإرادة
ذلك وكرهه ما يكرهه الله والنفور عنه. والقلب الفاسد:
هو القلب الذي فيه الميل على الأهواء المضلة والشهوات
المحرمة، وليس فيه من خشية الله ما يكف الجوارح عن
اتباع هوى النفس)^(٢).

(١) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: (١/ ٨٢).

(٢) فتح الباري، لابن رجب الحنبلي: (١/ ١١٦).

• الحديث الثالث: عن أبي قلابة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: مر عمر بمعاذ بن جبل رضي الله عنه وهو يبكي، فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أحب العباد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أولئك هم أئمة الهدى ومصابيح العلم»^(١).

• الحديث الرابع: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه. فقيل: ما أجزأنا اليوم أحدكما أجزأ فلان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما إنه من أهل النار». فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. قال فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه. قال فجرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج

(١) المستدرک للحاکم، وقال صحیح الإسناد، ولم یخرجاه: (٥١٨٠)، وفي الخلية: (١٥/١).

الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول ﷺ عند ذلك: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»^(١).

والشاهد في هذا الحديث قوله: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة».

وقد أورد البخاري رحمه الله تعالى هذا الحديث أيضاً في كتاب القدر في باب (العمل بالخوانيم)، وزاد في آخر الحديث: (وإنما الأعمال بالخوانيم).

(١) البخاري: (٤٢٠٢)، ومسلم (١١٢).

وفي هذا الحديث دليل على أن العبرة بصلاح الباطن والسريرة وحسنهما، لا بصلاح الظاهر فقط، وأنه قد يبدو للناس صلاح شخص في ظاهره، لكنه يحمل قلباً خبيثاً وسريرة فاسدة، تخذله عند الخاتمة، ويظهرها الله ﷻ عند الموت، فيختم له بها أعادنا الله من ذلك.

• الحديث الخامس: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تجد من شرّ الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» ^(١).

يشرح الحديث ابن حجر في فتح الباري فيقول: (قال القرطبي: إنما كان ذو الوجهين شر الناس لأن حاله حال المنافق، إذ هو متملق بالباطل وبالكذب، مدخل للفساد بين الناس. وقال النووي: هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها. فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها، وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتين، وهي مدهنة محرمة. قال: فأما من يقصد بذلك الإصلاح بين الطائفتين فهو محمود. وقال غيره: الفرق بينهما أن المذموم من يزين لكل طائفة عملها ويقبحه عند

(١) البخاري: (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦).

الأخرى ويذم كل طائفة عند الأخرى، والمحمود أن يأتي لكل طائفة بكلام فيه صلاح الأخرى ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى وينقل إليها ما أمكنه من الجميل ويستتر القبيح. ويؤيد هذه التفرقة رواية الإسماعيلي من طريق ابن نمير عن الأعمش «الذي يأتي هؤلاء بحديث هؤلاء، وهؤلاء بحديث هؤلاء» وقال ابن عبد البر: حملة على ظاهره جماعة وهو أولى، وتأوله قوم على أن المراد به من يرأى بعمله فيرى الناس خشوعاً واستكانة ويوهمهم أنه يخشى الله حتى يكرموه وهو في الباطن بخلاف ذلك، قال: وهذا محتمل لو اقتصر في الحديث على صدره فإنه داخل في مطلق ذي الوجهين. لكن بقية الحديث ترد هذا التأويل، وهي قوله: «يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»^(١).

• الحديث السادس: عن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال خرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أيها الناس إياكم وشرك السرائر». قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجل فيصلب فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر»^(٢).

(١) فتح الباري: (١٠/٤٩٠).

(٢) صحيح ابن خزيمة: (٩٣٧)، وابن أبي شيبة: (٨٤٠٣).

ثالثاً: الآثار المنقولة عن السلف رحمهم الله تعالى في عنايتهم بالسرائر وخوفهم من فسادها:

- الأول: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (القوة في العمل أن لا تؤخر عمل اليوم للغد، والأمانة ألا تخالف سريرة علانية واتقوا الله عز وجل، فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه) (١).
- الثاني: قال عثمان رضي الله عنه: (ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفتت لسانه) (٢).
- الثالث: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا أفضل منكم، قيل له بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة منكم) (٣).

• الرابع: عن مجاهد أن رجلاً قدم على ابن عمر فقال له: كيف أنتم وأبو أنيس الضحاك بن قيس؟ قال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما يُحِبُّ، وإذا ولَّينا عنه قلنا له غير

(١) سير أعلام النبلاء: (٢/ ٥٧٢).

(٢) الآداب الشرعية: (١/ ١٧٧).

(٣) صفة الصفوة: (١/ ٤٢٠).

ذلك، قال: (ذاك ما كنا نعد ونحن مع رسول الله ﷺ من النفاق)^(١).

• الخامس: كان أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ من النفاق، ويكثر التعوذ منه، فقال له أحدهم: وما لك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال: (دعنا عنك، فوالله إن الرجل ليقرب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه)^(٢).

• السادس: قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث. أضحكني مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك بملىء فيه ولا يدري أَرْضَى اللهُ أم أسخطه. وأبكاني فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت والوقوف بين يدي الله ﷻ يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا أدري إلى الجنة أم إلى النار)^(٣).

• السابع: عن أبي البخري عن سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (إن لكل امرئ جوانيا وبرانياً، فمن يصلح جوانيه يصلح برانيه، ومن يفسد جوانيه يفسد برانيه)^(٤).

(١) المطالب العالية: (٣/ ١٨٥).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٦/ ٣٨٢).

(٣) الزهد لابن المبارك (٢٥٠): (١/ ٢٦٢).

(٤) الزهد لابن المبارك (١٦٨٢): (٤/ ٣٢٣).

• الثامن: ذكر الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قوله: (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا آمنه إلا منافق. وما يُحذَر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] (١).

وإتماماً للفائدة أسوق شرح ابن حجر رحمه الله تعالى لهذه الآثار إذ يقول: (قوله: (وقال إبراهيم التيمي) هو من فقهاء التابعين وعبادهم، وقوله «مكذباً» يروى بفتح الذال يعني: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي، فيقول: لو كنت صادقاً ما فعلت خلاف ما تقول، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس. ويروى بكسر الذال وهي رواية

(١) البخاري، كتاب الإيمان: (١/ ١٣٥) فتح الباري.

الأكثر، ومعناه أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل. وقد ذم الله من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، فخشي أن يكون مكذباً أي مشابهاً للمكذبين، وهذا التعليق وصله المصنف في تاريخه عن أبي نعيم وأحمد ابن حنبل في الزهد عن ابن مهدي، كلاهما عن سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن إبراهيم المذكور.

قوله: (وقال ابن أبي مليكة. إلخ) هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه، لكن أبهم العدد. وكذا أخرجه محمد ابن نصر المروزي مطولاً في كتاب الإيمان له، وعينه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه من وجه آخر مختصراً كما هنا، والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجل من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم

خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص. ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وقال ابن بطال: إنها خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه، ولم يقدرُوا على إنكاره، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت^(١).

• التاسع: عن بلال بن سعد قال: (لا تكن ولياً لله في العلانية وعدوه في السريرة)^(٢).

• العاشر: عن الحسن رحمه الله تعالى قال: (يعد من النفاق اختلاف القول والعمل، واختلاف السر والعلانية، والمدخل والمخرج، وأصل النفاق الذي يبنى عليه النفاق الكذب)^(٣).

• الحادي عشر: قيل لحمدون بن أحمد: (ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة

(١) فتح الباري: (١/ ١١٠-١١١).

(٢) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا: (ص ٢٤).

(٣) الصمت، لابن أبي الدنيا: (ص ٢٤٠)(٤٨٤).

النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق)^(١).

• الثاني عشر: عن خالد بن صفوان قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة قلت: أصلحك الله، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به أشبه الناس سريرة بعلائية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه. قال: حسبك كيف يضل قوم هذا فيهم^(٢).

• الثالث عشر: عن الحسن رحمه الله تعالى قال: ابن آدم لك قول وعمل، وعملك أولى بك من قولك، ولك سريرة وعلائية، وسريرتك أولى بك من علانيتك^(٣).

(١) صفة الصفوة: (٤/١٢٢).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٤/٥٧٦).

(٣) مدارج السالكين: (١/٤٣٦).

• الرابع عشر: عن ابن عيينة رحمه الله تعالى قال: (إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الإحسان وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الظلم)^(١).

• الخامس عشر: عن نعيم بن حماد قال سمعت ابن المبارك يقول: (ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة)^(٢).

• السادس عشر: عن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا، حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة، إن كان يصلي إنا لنصلي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو فإننا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج.

قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت

(١) تفسير الطبري: (١٦٣/١٣).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٩٧/٨).

إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة^(١).

• السابع عشر: عن عقيل بن مغفل بن منبه قال سمعت عمي وهب بن منبه يقول: (يا بني اخلص طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق الله فيها فعلك في العلانية، فإن من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب موضعه وأبلغه قراره، وإن من أسر عملاً صالحاً لم يطلع عليه أحد إلا الله فقد اطلع عليه من هو حسبه، واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره، فلا تخافن على عمل صالح أسرته إلى الله عَجَبٌ ضياعاً، ولا تخافن من ظلمه ولا هضمه، ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة، كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها، والسريرة عرقها، إن نخر العرق هلكت الشجرة كلها ورقها وعودها، وإن صلحت صلحت الشجرة كلها ثمرها وورقها، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفياً لا يرى منه شيء. كذلك الدين لا يزال صالحاً ما كان له

(١) صفة الصفوة: (٤/١٤٥).

سريرة صالحة يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتها من قبل عرقها فإن فرعها زيتتها وجمالها، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين فإن العلانية معها تزين الدين وتجمله، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه ﷻ (١).

- الثامن عشر: عن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: (إن الرجل ليذنب الذنب في السر فيصبح عليه مذلتة) (٢).
- التاسع عشر: قال أبو عبيد السري: (النفاق خبث السريرة، فاتق الله ﷻ أن يرى الناس أنك تخشى الله ﷻ وقلبك فاجر) (٣).
- العشرون: قال الحسن: (ذم الرجل لنفسه في العلانية مدح لها في السريرة، وقالوا: من أظهر عيب نفسه فقد زكاها) (٤).

(١) حلية الأولياء: (٤/٦٩-٧٠).

(٢) أسباب العقوبات وأنواعها، لابن أبي الدنيا: (ص ٥٨).

(٣) تاريخ دمشق: (٥/٨٦).

(٤) العقد الفريد: (١/٣٣٣).

- الواحد والعشرون: عن قتادة رحمه الله تعالى قال: (والله إن عليك يا ابن آدم لشهوداً من ربك فراقبهم، وآثر الله في سرائرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية)^(١).
- الثاني والعشرون: عن الربيع بن خثيم أنه كان يقول: (السرائر السرائر اللاتي يخفين على الناس وهي عند الله بواد. قال: ويقول: التمسوا دواءهن. قال ويقول: ودواؤهن أن تتوب ولا تعود)^(٢).
- الثالث والعشرون: كان الشافعي رحمه الله تعالى يقول: (ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من العمل الصالح فيما بينه وبين الله ﷻ، ولا يعتمد على العلم فقط، فإنه قليل الجدوى في الآخرة)^(٣).
- الرابع والعشرون: عن سلام بن أبي مطيع قال: (ما كان يونس بن عبيد بأكثرهم صلاة ولا صوماً، ولكن والله ما حضر حق من حقوق الله إلا وهو متهيء له)^(٤).

(١) العظمة، لأبي الشيخ: (١/ ١٨٠).

(٢) الزهد، للإمام أحمد: (٥/ ٤٨).

(٣) العهود المحمدية: (١/ ٢٦٦).

(٤) حلية الأولياء: (٣/ ١٩).

- **الخامس والعشرون:** قال يحيى بن معاذ: (النسك هو العناية بالسرائر، وإخراج ما سوى الله ﷻ من القلب)^(١).
- **السادس والعشرون:** عن الفضيل بن عياض قال: (لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة)^(٢).
- **السابع والعشرون:** يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها وحسرة عليه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته، ويعين على طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تبلى السرائر)^(٣).



(١) ذم الهوى، لابن الجوزي: (ص ٦٩).

(٢) الحلية: (١٠٣/٨).

(٣) روضة المحبين: (ص ٢٨٠).

إِفْضَالُ الْغَيْبِ

من علامات صلاح السريرة وفسادها

إن صلاح السرائر وفسادها أمر لا يعلمه على وجه القطع إلا علام الغيوب، ولكن الله ﷻ جعل علامات لصلاح السريرة وفسادها، تظهر على العبد يعرفها من نفسه، وتكون للناس بمثابة القرائن التي تعكس لهم سرائر الغير.

قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

وفي هذا الفصل سيكون الكلام عن بعض العلامات التي تدل على صلاح السريرة وعكسها يدل على فسادها، مع الانتباه إلى أن أحداً لا يعلم حقيقة السرائر إلا الله ﷻ، فقد يظهر بعض المظاهر الطيبة من شخص فاسد السريرة، وقد تظهر بعض المظاهر السيئة من شخص صالح السريرة ولكن هذا قليل، لأن الغالب أن صلاح الباطن يقود إلى صلاح الظاهر، وفساد الباطن يقود إلى فساد الظاهر.

ومن هذه العلامات ما يلي:

العلامة الأولى: الإخلاص والصدق:

يعد الإخلاص عمدة أعمال القلوب، وأساس صلاح السيرة، حيث إن جل الأعمال القلبية المحبوبة لله ﷻ تعود إلى صفة الإخلاص. إن قيمة الإخلاص ومكانته العظيمة تظهر في كون التفاضل بين الأعمال والثواب عليها عند الله ﷻ تكون على قدر الإخلاص وتحقيقه في الأعمال، وقد بين الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه هذه الحقيقة بقوله: (يا حذانوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصيامهم. ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين)^(١). وسبق أن مر بنا قوله ﷻ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. وإن ركعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من مئات الركعات من غيرهم، وقيام ليلة منهم أفضل من قيام الليالي الكثيرة من غيرهم، لما في عبادة الأنبياء من كمال التعظيم والإجلال والإخلاص

(١) الزهد، للإمام أحمد: (١٧١).

والخشوع ما ليس عند غيرهم. قال مطرف بن عبد الله: (إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صوماً وصلاة وصدقة والآخر أفضل منه بونا بعيداً، قيل له: وكيف ذلك؟ فقال: هو أشدهما ورعاً عن محارمه)^(١).

ويقول شيخ الإسلام: (والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها)^(٢)، وقال ابن المبارك: (رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية)^(٣).

والإخلاص عمل قلبي باعته معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته، التي تثمر محبة الله ﷻ والخوف منه وتعظيمه ورجاءه واليقين بوعدته ووعيده. فإذا تمكنت هذه الأعمال الجليلة من القلب قادت إلى العبودية الصادقة لله ﷻ وتوحيده لا شريك له، وأصبح الباعث لجميع الأعمال والأقوال والأحوال الظاهرة هو إرادة وجه الله ﷻ والدار الآخرة، وسلم من الأعراض الدنيوية التي تكون باعث بعض الناس إلى بعض

(١) الزهد، لابن أبي عاصم: (٢٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (١١ / ٦٦٠).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١ / ٧١).

العبوديات كقصد الرياء والسمعة والظهور بين الناس، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من آفات أخرى: كالكبر والعجب والحسد وغيرها، نسأل الله العافية من ذلك.

ولست هنا بصدد التوسع في مسألة الإخلاص وأدلته من الكتاب والسنة، فإن هذا قد كتب فيه الكثير من الكتب والرسائل، وإنما المقصود التأكيد على أهمية هذا العمل القلبي وأثره العظيم في صلاح السريرة وأثر ضعفه في فسادها، ولذا سيكون التركيز في هذا المبحث إن شاء الله تعالى على معرفة بعض علامات الإخلاص التي بدورها تقودنا إلى معرفة بعض علامات صلاح السريرة، ويحسن بنا قبل ذكر هذه العلامات ذكر بعض التعاريف التي تناقلها السلف عن الإخلاص.

وقد ذكر طائفة منها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الإخلاص إذ يقول: (وقد تنوعت عبارتهم في الإخلاص والصدق، والقصد واحد).

ف قيل: هو أفراد الحق سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك، و«الصدق» التنقي من مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه لا حظ للنفس فيه.

وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر^(١).

(١) مدارج السالكين: (٢/٩٠-٩١).

ومن علامات الإخلاص التي يعرف بها العبد صلاح

سريته ما يلي:

أولاً: ابتغاء وجه الله ﷻ والخلوص من الرياء:

أثنى الله ﷻ على عباده المخلصين بقوله: ﴿ وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا
نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿ [الإنسان: ٨-٩].

ويتحقق الإخلاص في القلب بالتخلص من أعراض

الرياء الثلاثة، ألا وهي:

- ١- جلب المصالح الدنيوية بعمله الأخرى.
- ٢- دفع المضار الدنيوية بعمله الأخرى.
- ٣- التعظيم والشهرة بين الناس وحب الثناء منهم.

وبتخلص العبد من هذه الأعراض يتخلص من آفة

الرياء المسخوطة لله ﷻ. وإن أشد هذه الأعراض تخلصاً

منها حب التعظيم والشهرة بين الناس، ولقد كان من دأب

الصالحين مجاهدة النفس بالفرار من مدح الناس وتعظيمهم

وكرهية الظهور بينهم.

وهذا من علامات المخلصين لربهم ﷺ، حيث يكفيهم علم الله ﷻ بهم، ورجاء ثوابه على أعمالهم، وأمثال هؤلاء تراهم يزهدون في مدح الناس والظهور فيهم، لا يبحثون عنها بل يكرهونها، ويودون أنهم في غرباء الناس، وأن أحداً لم يطلع على أعمالهم إلا الله ﷻ، ومع ذلك فيأبى الله ﷻ إلا أن يظهر أحوالهم، ويعلي ذكرهم وشأنهم بين الناس، ويضع حبهم في قلوب عباده.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»^(١).

وأسوق فيما يلي بعض النماذج من أحوال السلف في كراحتهم للشهرة والظهور.

حديث أويس القرني: عن زرارة بن أوفى، عن أسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سأههم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال من مُرادٍ ثم من قرنٍ؟ قال: نعم. قال: فكان بك برّص فبرأت منه إلا موضع

(١) صحيح مسلم: (٢٩٦٥).

درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرادٍ، ثم من قرن. كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم. له والدة هو بها بر. لو أقسم على الله لأبره. فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل» فاستغفر لي. فاستغفر له.

فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غرباء الناس أحب إلي.

قال: فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر. فسأله عن أويس. قال: تركته رث البيت قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرادٍ، ثم من قرن. كان به برص فبرأ منه. إلا موضع درهم. له والدة هو بها بر. لو أقسم على الله لأبره. فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل» فأتى أويسا فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح. فاستغفر لي. قال: استغفر لي. قال أنت أحدث عهداً بسفر صالح. فاستغفر لي. قال: لقيت عمر؟ قال: نعم. فاستغفر له. ففطن له الناس. فانطلق على وجهه^(١).

(١) صحيح مسلم: (٢٥٤٢).

قال الشافعي رحمه الله تعالى: (وددت أن الخلق يتعلمون هذا العلم ولا ينسب إليّ منه شيء) (١).

وعن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه كتب إلى أخ له: (واحذر حب المنزلة، فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا) (٢).

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى قال: (لم يصدق الله من أحب الشهرة) (٣).

وكان خالد بن معدان رحمه الله تعالى (إذا عظمت حلقتة قام وانصرف كراهة الشهرة) (٤).

وقال الزهري رحمه الله تعالى: (ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياضة. ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياضة حامى عليها وعادى) (٥).

(١) حلية الأولياء: (١١٨/٩).

(٢) المصدر السابق: (٣٨٧/٦).

(٣) حلية الأولياء: (١٩/٨).

(٤) مختصر منهاج القاصدين: (ص ٧٦).

(٥) المصدر السابق: (ص ٢٠٩).

فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء^(١).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى علاجاً لحب المدح وثناء الناس، فقال: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فاقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس واقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذلك الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه. وأما الزهد في

(١) المصدر السابق: (ص ٢١٠).

الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه
ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده^(١).

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على ما كتبه عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه في خطابه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه
فيقول (وقوله: (ومن تزين بما ليس فيه شأنه الله) لما كان
المتزين بما ليس فيه ضد المخلص فإنه يظهر للناس أمراً وهو
في الباطن بخلافه، عامله الله بنقيض قصده، فإن المعاقبة
بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدرأً، ولما كان المخلص يُعجل له
من ثواب إخلاصه الحلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس
عُجل للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أن شأنه الله بين الناس،
لأنه شأن باطنه عند الله، وهذا موجب أساء الرب الحُسنى،
وصفاته العليا، وحكمته في قضائه وشرعه.

هذا ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع
والدين والنُّسك والعلم وغير ذلك قد نصب نفسه للوالم هذه
الأشياء ومقتضياتها، فلا بد أن تطلب منه، فإذا لم توجد عنده
افتضح، فشينه ذلك من حيث ظن أنه يزينه.

(١) الفوائد: (١٥٠).

وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع. وأساس النفاق وأصله هو التزيّن للناس بما ليس في الباطن من الإيمان، فعلم أن هاتين الكلمتين من كلام أمير المؤمنين مشتقة من كلام النبوة، وهما من أنفع الكلام وأشفاه للسقام.

وأيضاً فإنه أخفى عن الناس ما أظهر الله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم جزاء له من جنس عمله^(١).

ومما له صلة بكرهية الشهرة والظهور ما نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان من كراهيتهم للفتيا وتدافعهم لها بينهم. قال عبدالرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى: (أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أخاه كفاه ذلك. ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدعون العلم اليوم يقدمون على جواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع أهل بدر واستشارهم)^(٢).

(١) أعلام الموقعين: (٢/١٦٨-١٦٩).

(٢) مختصر منهاج القاصدين: (١٦).

وذكر ابن القيم أن رجلاً رأى (ربيعة الرأي) يبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقال: (استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم. قال: ولبعض من يفتي هاهنا أحق بالسجن من السراق)^(١).

ثم نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن بعض العلماء قولهم: (كيف لو رأى ربيعة زماننا وإقدام من لا علم عنده على الفتيا وتوثبه عليها، ومد باع التكلف إليها، وتسلقه بالجهل والجرأة عليها مع قلة الخبرة وسوء السيرة وشؤم السريرة)^(٢).

ومن دقائق حب الشهرة والظهور ما ذكره صاحب الإحياء، ونقله المقدسي من كتابه مختصر منهاج القاصدين، حيث يقول: (وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها).

(١) أعلام الموقعين: (٤/٢٠٧).

(٢) أعلام الموقعين: (٤/٢٠٧).

وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلاً من العباد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أهدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحب أن تقضى لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه^(١).

ومن دقائق الإخلاص ما ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. إذ يقول (المسألة الثانية: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه)^(٢).

ويا لها من مسألة عظيمة يغفل عنها كثير منا، فإن من الإخلاص أن تكون دعوة المرء إلى الله وابتغاء وجهه، وليس إلى نفسه وتعظيم ذاته وإشهارها بين الناس، والتفاف الناس

(١) مختصر منهاج القاصدين: (ص ٢١٩).

(٢) كتاب التوحيد (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

حوله، وحب الصدارة بينهم، وعدم رؤية الخير في عمل الآخرين.

ومن دقائق الرياء ما ذكره ابن رجب رحمه الله تعالى بقوله: (وربما أظهروا بألستهم ذم أنفسهم واحتقارها على رؤوس الأشهاد، ليعتقد الناس فيهم أنهم عند أنفسهم متواضعون، فيمدحون بذلك وهو من دقائق أبواب الرياء كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء ويظهر منهم من قبول المدح واستجلابه مما ينافي الصدق والإخلاص. فإن الصادق يخاف النفاق على نفسه ويخشى على نفسه سوء الخاتمة فهو في شغل عن قبول المدح واستحسانه)^(١).

ثانياً: المحبة لعمل الخلوة والخبيئة الصالحة:

وهذا من أبرز علامات الإخلاص وصلاح السرائر. فما زال المخلصون يحرصون على إخفاء صالح أعمالهم من غير الفرائض رجاء محبة الله ﷻ لهم وقبول أعمالهم عنده ﷻ، مستحضرين قوله ﷻ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»^(٢).

(١) فضل علم السلف على الخلف: (ص ٨).

(٢) مسلم: (٢٩٦٥).

وجاء عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: (اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح، كما أن لكم خبيئة من العمل السيء).

وقد كان ذلك هدياً بيناً للسلف الصالح، ومن ذلك قول الخريبي: (كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها)^(١).

ويقول القرطبي عند قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ^(١٤٣) لَلْبَثِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿[الصفات: ١٤٣-١٤٤].

قلت: ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»^(٢)، فيجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدخرها ليوم فاقتة وفقره، ويحبؤها بجهد، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه)^(٣).

يتحدث الأستاذ خالد روشة عن الخبيئة الصالحة فيقول: (زورق من ركبته نجا، وعبادة من اعتادها طهر قلبه وهذب

(١) سير أعلام النبلاء: (٣٤٩/٩).

(٢) مسند الشهاب: (٢٦٧/١)، والصحيح وقفه على الزبير بن العوام.

(٣) تفسير القرطبي: (١٢٧/١٥).

نفسه وعودها الإخلاص، إنها العبادة في السر والطاعة في الخفاء، حيث لا يعرفك أحد، ولا يعلم بك أحد غير الله ﷻ، فأنت عندئذ تقدم العبادة له وحده غير عابئ بنظر الناس إليك، وغير منتظر لأجر منهم مهما قل أو كثر. وهي وسيلة لا يستطيعها المنافقون أبداً، وكذلك لا يستطيعها الكذابون لأن كلا منهما بنى أعماله على رؤية الناس له، وإنما هي من أعمال الصالحين فقط.

إن أعمال السر لا يثبت عليها إلا الصادقون، فهي زينة الخلوات بين العبد وبين ربه، ولكن في وقت قل فيه عمل السر، أو كاد أن ينسى، ينبغي على الحركة الإسلامية إحياء معناه، علماً وعملاً، وينبغي على شباب الصحوة الإسلامية تربية أنفسهم عليه.

وليعلم كل امرئ أن الشيطان لا يرضى ولا يقر إذا رأى من العبد عمل سر أبداً، وإنه لن يتركه حتى يجعله في العلانية، ذلك لأن أعمال السر هي أشد أعمال على الشيطان، وأبعد أعمال عن مخالطة الرياء والعجب والشهرة، وإذا انتشرت أعمال السر بين المسلمين ظهرت البركة وعم الخير بين الناس، وإن ما نراه من صراع على الدنيا سببه الشح الخارجي والشح الخفي، فأما الأول فمعلوم، وأما الثاني

فهو البخل بالطاعة في السر، إذ إنها لا تخرج إلا من قلب كريم قد ملأ حب الله سويداءه، وعمت الرغبة فيما عنده أرجاءه، فأنكر نفسه في سبيل ربه، وأخفى عمله يريد قبوله من مولاه، فأحب بهذي الجوارح المخلصة والنفوس الطيبة الصافية النقية التي تخفي عن شهاها ما تنفق يمينها^(١).

وقد نقل الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى بعض أحوال السلف في إخفاء أعمالهم وذلك عند قوله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. فقال: (وقال عبدالله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك

(١) عن موقع (المسلم).

أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (١).

وإتماماً للفائدة أسوق مزيداً من النماذج المضیئة، التي تبين حرص سلفنا الصالح على حفظ أعمالهم وإخفائها عن الناس. فمن ذلك:

كان زين العابدين علي بن الحسين ينفق على أهل مئة بيت في المدينة، يأتيهم في الليل بالطعام، ولا يعرفون من الآتي به، حتى مات ففقدوا ذلك، فعرفوا أن ذلك منه، ووجدوا في ظهره أثراً من نقل الطعام إلى بيوت الأرامل (٢).

وكان ابن المبارك يضع اللثام على وجهه عند القتال لئلا يُعرف، قال أحمد: (ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له) (٣).

وما جاء أن منصور السلمي صام أربعين سنة وقام ليلها، كان يبكي فتقول له أمه: يا بني قتلت قتيلاً؟! فيقول: أنا

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٢٤) ط/ الشعب.

(٢) سير أعلام النبلاء: (٣/٣٩٣).

(٣) صفة الصفوة: (٤/١١٥).

أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصبح كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرق شفتيه، وخرج إلى الناس^(١).

ومن ذلك أن داود بن أبي هند: صام أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازا يحمل غذاءه من عندهم، فيتصدق به في الطريق، ويرجع عشياً فيفطر معهم^(٢).

وقال سفيان: (أخبرتني سرية الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سرّاً، إن كان ليحيي الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه)^(٣).

وقول سلمة بن دينار: (اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك)^(٤).

ويقول الشافعي رحمه الله تعالى: (ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من العمل الصالح فيما بينه وبين الله ﷻ، ولا يعتمد على العلم فقط، فإنه قليل الجدوى في الآخرة)^(٥).

(١) سير أعلام النبلاء: (٤٠٦/٥).

(٢) حلية الأولياء: (٩٤/٣).

(٣) حلية الأولياء: (١٠٧/٢).

(٤) المصدر السابق: (٢٤٠/٣).

(٥) العهود المحمدية: (٢٦٦/١).

وعن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه كتب إلى أخ له:
(واحذر حب المنزلة، فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في
الدنيا)^(١).

وعن إبراهيم بن أدهم قال: (لم يصدق الله من أحب
الشهرة)^(٢).

وقال ابن قتيبة: (حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس
إلى نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عَرْض الجيش
فدخله ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب
النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الأذن بإدخاله
ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء! فجاء رجل، فقال: استأذن
لي على الأمير، فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم
عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب
النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسوّدوا اسمه في صحيفة إلى
الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك
له. قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال:
اللهم اجعلني مع صاحب النقب!)^(٣).

(١) حلية الأولياء: (٦/٣٨٧).

(٢) الحلية: (٨/١٩).

(٣) عيون الأخبار، لابن قتيبة: (١/٢٦٦).

ثالثاً: موافقة الباطن للظاهر وعدم مخالفة السريرة للعلائية:

وهذه من صفات عباد الله المخلصين الذين لا يقولون ويفعلون ما يخالف ما في بواطنهم وليسوا من أهل ذي الوجهين الذين يلاقون هؤلاء بوجهه وهؤلاء بوجه آخر، لأن هذا من صفات المنافقين الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وقال عنهم أيضاً: ﴿يَقُولُونَ بِاللَّسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

فمن علامات الإخلاص مطابقة السريرة للعلائية، بل إن سريرة المخلصين أحسن من علانيتهم، كما جاء ذلك عن ابن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: (إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور)^(١).

وأكثر ما يقع فيما يضاد هذه العلامة الحسنة من علامات الإخلاص بعض الوعاظ والمتنسكين الذين يظهرون التنسك والأمر بطاعة الله ﷻ أمام الناس، ثم يسيئون فيما بينهم وبين

(١) تفسير الطبري: (١٣/١٦٣).

الله ﷺ، وقد حكى النبي ﷺ حال هؤلاء، فقال: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثوراً» قال ثوبان رضي الله عنه: صفهم لنا يا رسول الله! أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»^(١).

والمخلصون من عباد الله ﷺ ليس هذا من شأنهم وليس من أخلاقهم، بل إنهم أسرع الناس إلى امتثال ما يأمرون الناس به من طاعة الله ﷻ، وأسرعهم إلى الانتهاء عما ينهون الناس عنه من معصية الله ﷻ أمام الناس وفي خلواتهم.

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل كتاباً إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما جميعاً قالوا فيه: (من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك. أما بعد فإننا عهدناك وأمر نفسك لك. فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل، فانظر كيف

(١) رواه ابن ماجه: (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٥٠٢٨).

أنت عند ذلك يا عمر، فإننا نحذرك يوماً تعنى فيه الوجوه،
وتجف في القلوب، وتنقطع فيه الحجج لحجة ملك قهرهم
بجبروته. فالخلق داخرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه.
وإننا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى
أن يكونوا أخوان العلانية أعداء السريرة، وإننا نعوذ بالله أن
ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا
به نصيحة لك والسلام عليكم.

فكتب إليهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من عمر بن الخطاب
إلى أبي عبيدة ومعاذ، سلام عليكم. أما بعد أتاني كتابكما
تذكران أنكما عهدتاني وأمر نفسي لي فأصبحت قد وليت
أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يدي الشريف
والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل.
كتبتما فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر! وأنه لا حول ولا
قوة لعمر عند ذلك إلا بالله عز وجل. وكتبتما تحذراني ما حذرت
منه الأمم قبلنا، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بأجال
الناس يقربان كل بعيد، وييليان كل جديد، ويأتیان بكل
موعود، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار،

كتبتما تحذراني أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا أخوان العلانية أعداء السريرة، ولستم بأولئك وليس هذا بزمان ذاك، وذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرغبة، تكون رغبة الناس بعضهم إلى بعض لصالح دنياهم. كتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما، وأنكما كتبتما به نصيحة لي، وقد صدقتما، فلا تدعا الكتاب إليّ فإنه لا غنى بي عنكما، والسلام عليكم^(١).

وقال حميد الطويل رحمه الله تعالى: (لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت)^(٢).

وقال ابن الإعرابي: (أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد)^(٣).

ومن هؤلاء المخلصين الذين شهد لهم بمطابقة السريرة للعلانية الحسن البصري رحمه الله تعالى، فعن خالد بن

(١) الحلية، لأبي نعيم: (١/٢٣٨).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/٣٩٨).

(٣) شعب الإيمان، للبيهقي: (٦٩٨٧).

صفوان قال لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم أنا جاره إلى جنبه وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلائية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه^(١).

وهناك بعض الصور التي ترفع عنها صاحب السريرة الصالحة، لأنها من علامات مخالفة السريرة للعلائية، من هذه الصور:

إظهار الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع أن الأمر في الباطن خلاف ذلك، حيث يكون حب الدنيا قد تمكن من القلب وسافر في أوديتها وتفرق في شعابها.

إظهار الغيرة على الدين والحدب عليه، وأنه الهم الشاغل للنفس، مع أن هذا الادعاء لا يتعدى اللسان أو الكتابة، أما القلب فيكاد يفرغ من هذا الهم المدعى، لأنه قد امتلأ باهتمامات أخرى تسبق الاهتمام بالإسلام في سلم

(١) سير أعلام النبلاء: (٤/٥٧٦).

الأولوية. وهذه الصور عادة ما تظهر عند بعض الوعاظ أو الخطباء أو الكتاب، الذين يظهرون الحرقه والألم على الإسلام والمسلمين، والله أعلم بما في القلوب. فلننتبه لخطر هذه المناقضة، ولنحذر هذه الفتنة، فهي من صفات المنافقين التي ذكرها الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

مخالطة الكفار أو الظلمة والفسقة ومدحهم أو موافقتهم فيما يقولون ويعملون من مخالفات، ثم ذكرهم بالسوء بعد مفارقتهم، وهذا هو الذي كان أصحاب محمد ﷺ يعدونه من النفاق ويخافون منه.

إظهار المحبة والشفقة للناس وسلامة القلب نحوهم، مع تلبس القلب بأمراض كثيرة تناقض هذا الادعاء: كأمراض الحسد والحقد والشحناء وغيرها.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى صورة متكررة من صور مخالفة الظاهر للباطن، ألا وهي إظهار الغيبة للناس في قالب النصح والشفقة والديانة. يقول رحمه الله تعالى: (ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى.

تارة في قالب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير، ولا أحب الغيبة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحواله، ويقول: والله إنه مسكين أو رجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت، وربما يقول: دعونا منه، الله يغفر لنا وله. وإنما قصده استنقاصه وهضماً لجنابه، ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة، يخادعون الله بذلك، كما يخادعون مخلوقاً، وقد رأينا منهم ألواناً كثيرة من هذا وأشباهه... ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب، فيقول: تعجبت من فلان كيف لا يفعل كيت وكيت؟ ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت، وكيف فعل كيت وكيت؟! فيخرج اسمه في معرض تعجبه. ومنهم من يخرج الاغتمام فيقول: مسكين فلان. غمني ما جري له وما تم له، فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف، وقلبه منطو على التشفي به. ولو قدر لزيد على ما به. وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه. ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر، فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول وقصده غير ما أظهر والله المستعان^(١).

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/٢٣٧-٢٣٨).

رابعاً: خوفهم من أن ترد أعمالهم الصالحة:

وذلك كما وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند الآية الأخيرة: (أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشرط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله ﷻ؟ قال: (لا يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله ﷻ)^(١)، وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه. وقال: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم

(١) مسند أحمد: (٦/١٥٩).

(أولئك يسارعون في الخيرات)^(١)، وقال الحسن: (يؤتون الإخلاص، ويخافون ألا يقبل منهم)^(٢).

وأخبار السلف في خوفهم من أن ترد أعمالهم الصالحة بسبب بعض المكدرات كثيرة، فمن ذلك:

عن تميم المقري قال: سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: (لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾)^(٣).

قول الربيع بن خثيم: (كل ما لا يُبتغى فيه وجه الله عز وجل يضمحل)^(٤).

وعن محمد بن مالك بن ضيغم قال: حدثني مولانا أبو أيوب قال: قال لي أبو مالك يوماً: يا أبا أيوب احذر نفسك على نفسك، فإني رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي، وإيم الله لئن لم تأت الآخرة المؤمن بالسرور لقد اجتمع عليه الأمران:

(١) تحفة الأحوزي: (١٩ / ٩)، وانظر المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير: (ص ٩١٦-٩١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٣ / ٨٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١٣٢ / ١٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣ / ٧٩)، ط الشعب.

(٤) صفة الصفوة: (٣ / ٦١).

هم الدنيا وشقاء الآخرة. قال قلت: بأبي أنت وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور وهو ينصب لله في دار الدنيا ويدأب؟ قال: يا أبا أيوب فكيف بالقبول وكيف بالسلامة؟ ثم قال: كم من رجل يرى أنه قد أصلح شأنه، قد أصلح قربانه، قد أصلح همته، قد أصلح عمله، يجمع ذلك يوم القيامة ثم يضرب به وجهه^(١).

وقال العزبن عبد السلام: (قد يرى الإنسان اثنين فيظن أن أحدهما أفضل من الآخر، لما يرى من طاعته الظاهرة، والآخر أفضل منه بدرجات كثيرة، لما اشتمل عليه من المعارف والأحوال، والقليل من أعمال الأعراف خير من الكثير من أعمال العارفين، وأين الثناء من المستحضرين لأوصاف الجلال وتعرف الكمال، من ثناء المسبحين بألسنتهم الغافلين بقلوبهم؟ ليس التكحل في العينين كالكحل)^(٢).

خامساً: الفرار من العجب وتزكية النفس:

وهذا من دأب المخلصين الذين يعرفون ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلاء، ويعلمون ويوقنون بأنه ﷻ المتفضل

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٦٠).

(٢) قواعد الأحكام: (٣٥٩).

عليهم بالإيجاد والإعداد والإمداد، وهو الذي أمدهم بالسمع والبصر والفؤاد وقد خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ولا يقدرّون على شيء، فمن أين يأتي العجب إلى هذه النفوس المعترفة بفضل ربها عليها في كل شيء والمعترفة بتقصيرها وآفاتها وعجزها، وأن الله ﷻ لو وكلها إلى أنفسها لضاعت وخسرت. ولذا نرى مثل هؤلاء المخلصين شديدي الاستعانة بالله ﷻ والتوكل عليه وحده ومتبرئين من الحول والقوة، فارين من العجب وأسبابه. وأخبارهم في ذلك كثيرة:

قال مطرف بن عبدالله: (لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً)^(١).

وقال مسروق: (كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله)^(٢).

وجاء عن ابن حزم قال: (كانت فيّ عيوب، ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب

(١) الخلية: (٢/ ٢٠٠).

(٢) الدر المنثور، للسيوطي: (٥/ ٤٧٠).

كله، ولم يبق والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها
جملة واستعمال التواضع^(١).

وجاء عنه أيضاً قوله: (من امتحن بالعجب فليفكر
في عيوبه، فإن أعجب بفضائله فليفتش فيه عن الأخلاق
الدنية، فإن خفت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه
فليعلم أنه مصيبة للأبد، وأنه أتم الناس نقصاً، لأن العاقل
من ميز عيوب نفسه فغالباها، وسعى في قمعها، فإن أعجبت
بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها، وإن أعجبت بخيرك
ففكر في معاصيك وتقصيرك، وإن أعجبت بعلمك فاعلم
أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله)^(٢).

وعن أبي وهب المروزي: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟
قال: أن تزدرى الناس. فسألت عن العجب قال: أن ترى أن
عندك شيئاً ليس عند غيرك. لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من
العجب)^(٣).

(١) الأخلاق والسير: (٣٣، ٣٤).

(٢) رسائل ابن حزم: (١/٢٨٧).

(٣) سير أعلام النبلاء: (٨/٤٠٧).

وللإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلام نفيس في علاج العجب، وذلك في حديثه عن شهود العبد ذنوبه، وحكمة الله ﷻ في تخليته بين العبد والذنب، إذ يقول: (ومنها أن الله ﷻ إذا أراد بعبد خيراً أنساه رؤية طاعته ورفعها من قلبه ولسانه، فإذا ابتلي بالذنب جعله نصب عينيه ونسي طاعته، وجعل همّه كله بذنبه، فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد أو غداً أو راح، فيكون هذا عين الرحمة في حقه. كما قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأناب إلى الله وذلل له وانكسر وعمل لها أعمالاً فتكون سبب الرحمة في حقه. ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمنّ بها ويراها ويعتدّ بها على ربّه وعلى الخلق ويتكبرّ بها ويتعجّب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار، فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه، وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره، والله المستعان.

ومنها أن شهود العبد ذنوبه وخطاياها مُوجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلاً ولا له على أحد حقاً فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه، فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويحرم ما حرم الله ورسوله، وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم إيّاها ويذمهم على ترك القيام بها، فإنها عنده أحسّ قدراً وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها، أو له عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجلها، فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه، فاستراح هذا في نفسه وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله، فما أطيب عيشه، وما أنعم باله، وما أقر عينه، وأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق، شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط^(١).

سادساً: مجاهدتهم لهوى النفس وجعله تبعاً للحق:

وهذه العلامة من علامات الإخلاص تعد من أشق ما على نفوس المخلصين، إذ إن الهوى هو ميل النفس والطبع

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ٣١٠).

إلى ما يهواه. ولا يتخلص منه إلا الصديقون من المؤمنين، ويحتاج التخلص منه إلى مجاهدة عظيمة ومراقبة دقيقة ويقظة شديدة للقلب وتقلباته، ومن مظاهره الخفية أنك قد تدخل في أمر تحسب أنك مخلص فيه وليس لك فيه هوى، فما تلبث أن يدخل الهوى وحظوظ النفس فيتغير كل شيء.

فعلى مرید الإخلاص أن يقوي إرادته ويخاف مقام ربه وينهى النفس عن الهوى حتى تكون الجنة هي المأوى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: (أفضل الجهاد جهاد الهوى)^(١).

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: (لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذا أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق وتعاقب على ما تركته منه، لأنك إنما اتبعت هواك في الموضوعين)^(٢).

(١) أدب الدنيا والدين، للهاوردي: (٤١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: (١/٥٩٠).

وقد ذكر الشيخ عبدالرحمن المعلمي رحمه الله تعالى في كتابه النفيس (التنكيل) مجموعة من الأسباب التي توقع في الهوى والتعصب ورد الحق وأهمها ضعف الإخلاص، ثم أعقبها بذكر صور من الهوى وصور من العلاج لهذا الهوى، أسوقها للقارئ الكريم مختصرة لفائدتها.

قال رحمه الله تعالى: (ومخالفة الهوى للحق في الاعتراف بالحق من وجوه:

الأول: أن يرى الإنسان أن اعترافه بالحق يستلزم اعترافه بأنه كان على باطل، فالإنسان ينشأ على دين أو اعتقاد أو مذهب أو رأي يتلقاه من مربيه ومعلمه على أنه حق، فيكون عليه مدة ثم إذا تبين له أنه باطل شق عليه أن يعترف بذلك، وهكذا إذا كان أباه أو أجداده أو متبوعه على شيء، ثم تبين له بطلانه، وذلك أنه يرى أن نقصهم مستلزم لنقصه، فاعترافه بضلالهم أو خطئه اعتراف بنقصه.

الوجه الثاني: أن يكون قد صار له في الباطل جاه وشهرة ومعيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل فتذهب تلك الفوائد.

الوجه الثالث: الكبر، يكون الإنسان على جهالة أو باطل فيجيء آخر فيبين له الحجة، فيرى أنه إن اعترف كان معنى ذلك اعترافه بأنه ناقص، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه، ولهذا ترى من المنتسبين إلى العلم من لا يشق عليه الاعتراف بالخطأ إذا كان الحق يتبين له ببحته ونظره، ويشق عليه ذلك إذا كان غيره هو الذي بين له.

الوجه الرابع: الحسد، وذلك إذا كان غيره هو الذي بين الحق فيرى أن اعترافه بذلك الحق يكون اعترافاً لذلك الممين بالفضل والعلم والإصابة، فيعظم ذلك في عيون الناس، ولعله يتبعه كثير منهم، وإنك لتجد من المنتسبين إلى العلم من يحرص على تخطئة غيره من العلماء ولو بالباطل حسداً منه لهم، ومحاولة لحط منزلتهم عند الناس...^(١).

ثم أخذ رحمه الله تعالى بعد ذلك يذكر بعض الصور التي تكون عند بعض أهل العلم ويكون دافعها الهوى والتعصب، فيقول: (.. فنجد ذا الهوى كلما عرض عليه دليل لمخالفه أو ما يوهن دليلاً لأصحابه شق عليه ذلك واضطرب

(١) التنكيل: (٢/ ١٨٠-١٨٢) باختصار.

واغتاظ وسارع إلى الشغب، فيقول في دليل مخالفه: هذه شبهة باطلة مخالفة للقطعيات، وهذا المذهب مذهب باطل لم يذهب إليه إلا أهل الزيع والضلال...، ويؤكد ذلك بالثناء على مذهبه وأشياخه، ويعد المشاهير منهم ويطريهم بالألفاظ الفخمة، والألفاظ الضخمة، ويذكر ما قيل في مناقبهم ومثالب مخالفهم، وإن كان يعلم أنه لا يصح أو أنه باطل، ومن أوضح الأدلة على غلبة الهوى على أكثر الناس - أنك تراهم - على أديان مختلفة ومقالات متباينة، ومذاهب متفرقة، وآراء متدافعة ثم تراهم كما قال الله تبارك وتعالى:

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

فلا تجد من ينشأ على شيء من ذلك ويثبت عليه يرجع عنه إلا القليل، وهؤلاء القليل يكثرون أن يكون أول ما بعثهم على الخروج عما كانوا عليه أغراض دنيوية.. (١).

واستمر في ذكر بعض صور اتباع الهوى، فقال:

(... افرض أنك قرأت آية فلاح لك منها موافقة قول لإمامك، وقرأت أخرى فلاح لك منها مخالفة قول آخر له،

(١) التنكيل: (٢/ ١٨٠-١٨٢).

أَيكونُ نظركُ إليهما سواء؟ لا تبالى أن يتبين منهما بعد التدبر صحة ما لاح لك أو عدم صحته^(١).

افرض أنك وقفت على حديثين لا تعرف صحتهما ولا ضعفهما، أحدهما يوافق قولاً لإمامك والآخر يخالفه، أيكون نظرك فيهما سواء، لا تبالى أن يصح سند كل منهما أو يضعف؟...

افرض أن رجلاً تحبه وآخر تبغضه تنازعا في قضية فاستفيت فيها ولا تستحضر حكمها وتريد أن تنظر. ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه...؟

افرض أنك تعلم من رجل منكرًا وتعذر نفسك في عدم الإنكار عليه، ثم بلغك أن عالماً أنك عليه وشدد النكير، أيكون استحسانك لذلك سواء فيما إذا كان المنكر صديقك أم عدوك، والمنكر عليه صديقك أم عدوك؟

(١) وقریباً من هذه الصورة ما ذكره البيهقي عن يقطع من النصوص ما يوافق هواه إذ يقول: (وهذا دأبه في نقل الأخبار ينقل ما يمكنه التعلق به ويدع الباقي ليوهم من نظر في كتابه أنه حجة له، ولا يفكر في نفسه أن المطلع على السرائر عالم بفعله وأنه ربما ينظر في كتابه من هو عالم فيطلع على تلبيسه، والله يعصمنا من أمثاله بفضلته) القراءة خلف الإمام: للبيهقي (ص ٣١٣).

فتش نفسك تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما أنت مبتلى به. فهل تجد استثنائك ما هو عليه مساوياً لاستثنائك ما أنت عليه، وتجد مقتك نفسك مساوياً لمقتك إياه؟

وبالجملة فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى، وقد جربت نفسي أنني ربما أنظر في القضية زاعماً أن لا هوى لي فيلوح لي فيها معنى، فأقرره تقريراً يعجبني ثم يلوح لي ما يחדش في ذاك المعنى فأجدني أتبرم بذلك الخدش وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأنني لما قررت ذلك المعنى أولاً تقريراً أعجبني صرت أهوى صحته هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلاً آخر اعترض عليّ به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه؟

والواجب على العالم وطالب العلم أن يفتش عن هوى نفسه حتى يعرفه ثم يحترز منه ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بان له أنه مخالف لهواه أثر الحق على هواه...^(١) أ.هـ.

(١) التنكيل: (٢/١٨٦-١٩٨) باختصار وتصرف يسير.

وبعد هذا الكلام الجيد عن أسباب الوقوع في الهوى ورد الحق والتعصب للباطل، وبعد ذكر الأمثلة لذلك، يحسن ذكر بعض الوسائل المعينة على تجنب الهوى وقبول الحق.

إن الوقوع في الباطل والضلال بسبب الجهل يكون علاجه بالعلم والبصيرة في الدين. أما البقاء على الباطل بعد تبين بطلانه ورد الحق بعد ما تبين أنه الحق فإن علاج هذا المرض الخطير لا ينفع فيه العلم وإزالة الشبهة، لأن سببه الهوى وضعف الإخلاص والتعصب وليس الجهل والشبهة، ومثل هذا لا ينفع فيه إلا أن يذكر بتقوى الله ﷻ والخوف من عقابه ﷻ، كما يذكر بشرف الحق واتباعه والثواب العظيم الذي يكتبه الله ﷻ للمتبعين للحق والمؤثرينه على أهوائهم وشهواتهم، وفي ذلك يقول المعلمي رحمه الله تعالى: (هذه أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكير فيها ويجعلها نصب عينيه.

يفكر في شرف الحق وضعة الباطل، وذلك بأن يفكر في عظمة الله ﷻ وأنه رب العالمين، وأنه ﷻ يجب الحق ويكره الباطل، وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين، فكان ﷻ وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه

خيراً له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع حتى يتوفاه راضياً مرضياً، فيرفعه إليه ويقربه لديه، ويجعله في جواره مكرماً منعماً في النعيم المقيم، والشرف الخالد، الذي لا يبلغ الأوهام عظمته، وأن من أخلد إلى الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه، فإن آتاه شيئاً من نعيم الدنيا فإنما ذلك لهوانه عليه ليزيده بُعداً عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد الذي لا تبلغه الأوهام.

يتدبر ما يرجى لمؤثر الحق من رضوان رب العالمين، وحسن عنايته في الدنيا والفوز العظيم الدائم في الآخرة، وما يستحقه متبع الهوى من سخطه عز وجل، والمقت في الدنيا والعذاب الأليم الخالد في الآخرة، وهل يرضى عاقل لنفسه أن يشتري لذة اتباع هواه بفوات حسن عناية رب العالمين وحرمان رضوانه والقرب منه والزلفى عنده والنعيم العظيم في جواره، وباستحقاق مقتته وسخطه وغضبه وعذابه الأليم الخالد؟ لا ينبغي أن يقع هذا حتى من أقل الناس عقلاً، سواء أكان مؤمناً موقناً بهذه النتيجة، أم ظاناً لها، أم شاكاً فيها، أم ظاناً لعدمها...

يستحضر أن الذي يهمله ويُسأل عنه هو حاله في نفسه، فلا يضره عند الله تعالى ولا عند أهل العلم والدين والعقل أن يكون معلمه أو مربيه أو أسلافه أو أشياخه على نقص، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يسلموا من هذا، وأفضل هذه الأمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم وكان آباؤهم وأسلافهم مشركين.

هذا مع احتمال أن يكون أسلافك معذورين إذا لم ينبهوا ولم تقم عليهم الحجة. وعلى فرض أن أسلافك كانوا على خطأ يؤاخذون به فاتباعك لهم وتعصبك لا ينفعهم شيئاً بل يضرهم ضرراً شديداً، فإنه يلحقهم مثل إثمك ومثل إثم من يتبعك من أولادك وأتباعك إلى يوم القيامة، كما يلحقك مع إثمك مثل إثم من يتبعك إلى يوم القيامة، أفلا ترى أن رجوعك إلى الحق هو خير لأسلافك على كل حال؟

يأخذ نفسه بخلاف هواها فيما يتبين له، فلا يسامحها في ترك واجب أو ما يقرب منه، ولا في ارتكاب معصية أو ما يقرب منها، ولا في هجوم على مشتبه، ويروضها على التثبت

والخضوع للحق، ويشدد عليها في ذلك حتى يصير الخضوع للحق ومخالفة الهوى عادة له.

يأخذ نفسه بالاحتياط فيما يخالف ما نشأ عليه، فإذا كان فيما نشأ عليه أشياء يرى أنه لا بأس بها، أو أنها مستحبة، وعلم أن من أهل العلم من يقول: إنها شرك أو بدعة أو حرام، فليأخذ نفسه بتركها حتى يتبين له بالحجة الواضحة صحة ما نشأ عليه، وهكذا ينبغي له أن ينصح غيره ممن هو في مثل حاله، فإن وجدت نفسك تأبى ذلك، فاعلم أن الهوى مستحوذ عليها فجاهدها^(١) أ.هـ.

• العلامة الثانية: لصلاح السريرة:

ترك ما لا يعني والانشغال بالذات وإصلاحها عن الانشغال بعيوب الناس. وهذا من علامات صلاح الباطن، حيث إن صاحب السريرة الصالحة لا تراه إلا منشغلاً بنفسه وإصلاحها معرضاً عن عيوب الناس، فعنده من الإصلاحات لنفسه ما يشغله عن غيره. وتراه في إصلاح حاله مركزاً على

(١) التنكيل: (٢/ ١٩٠-٢٠٠) باختصار.

قلبه وسريره ساعياً في إصلاح ما فسد منها باذلاً جهده في التخلص من الآفات التي تفسدها.

وهذا من علامات توفيق الله ﷻ لعبده المؤمن، ومن علامات الخذلان أن تجد العبد منشغلاً بعيوب الناس وآفاتهم ناسياً نفسه وآفاتها.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يفصل في حكمة الله تعالى في قضائه وتخليته بين العبد والذنب: (ومنها: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعيب نفسه، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس. هذا من علامة الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة)^(١).

وقال في موطن آخر: (فمن عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس، من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه، أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق)^(٢).

(١) مفتاح دار السعادة: (١/٣١٠).

(٢) الفوائد: (ص ٦٣).

وهذا لا يعني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإهمال دعوة الناس، وإنما المقصود أن لا تنسيه دعوة الناس إصلاح نفسه والاهتمام بها ونسيان آفاتهما الظاهرة والباطنة.

• العلامة الثالثة: أصحاب السريرة الصالحة إذا رؤوا ذكر الله ﷻ:

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا بلى. قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله. أفلا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى. قال: «المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب»^(١).

وجاء في الزهد لابن المبارك عن العلاء بن المسيب عن أبي الضحى قال: سمعته يقول: (إن عباد الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين إذا رؤوا ذكر الله)^(٢).

وهؤلاء الذين تذكرو رؤيتهم ذكر الله ﷻ لا شك أنهم المؤمنون باطناً وظاهراً الذين صلحت سرائرهم، فألقى الله ﷻ النور والسمت الحسن على ظواهرهم ووجوههم، فأحبهم الناس، وذكروا الله ﷻ برؤيتهم، وهذا مصداق

(١) انظر صحيح الأدب المفرد، حيث حسنه الألباني: (٢٤٦).

(٢) الزهد لابن المبارك: (١٤٨/٣).

قول الله ﷻ في وصفه لأصحاب نبينا محمد ﷺ، وذلك في قوله ﷻ: ﴿سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: سياههم في وجوههم يعني السمات الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع... وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار... وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتات لسانه. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته... فالصحابه خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديمهم)^(١).

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٣٤٢-٣٤٣) باختصار، ط الشعب.

وقال البقاعي رحمه الله تعالى في نظم الدرر: (سيماهم: أي علامتهم التي لا تفارقهم في وجوههم) ثم بين العلامة بقوله (من أثر السجود) فهي نور يوم القيامة. رواه الطبراني عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. هذا مع ما لهم من مثل ذلك في الدنيا من أثر الخشوع والهيبة، بحيث إنه إذا رئي أحدهم أورثت لرائيه ذكر الله، وإذا قرأ أورثت قراءته حزناً وخشوعاً وإخباتاً وخضوعاً، وإن كان رث الحال رديء الهيئة^(١).

وقال سيد قطب رحمه الله تعالى أيضاً عند هذه الآية: (... واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمّر في ملاحظهم، ونضحها على سياتهم ﴿سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، سيماهم في وجوههم من الوضاعة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف... فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاعة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاعة وصباحة ونبلاً^(٢).

(١) نظم الدرر: (١٨ / ٣٤٠).

(٢) في ظلال القرآن: (٦ / ٣٣٣٢) باختصار.

وجاء في وصف حماد بن زيد رحمه الله تعالى عن أبي عاصم قوله: (مات حماد بن زيد يوم مات، ولا أعلم له في الإسلام نظيراً في هيئته ودله، أظنه قال: وسمته)^(١).

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: (إنها يهابك الخلق على قدر هيبتك لله)^(٢).

وقال إبراهيم بن الأشعث: (ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من بحضرتة)^(٣).

• العلامة الرابعة: تعظيم الله ﷻ وتعظيم حرماته والخوف منه: يقول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ اللَّهَ فَبِإِذْنِهِ يُكْرِمُهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فمن علامات تقوى القلب وصلاح السريرة تعظيم شعائر الله وحرماته، وذلك بتعظيم أوامره بفعالها ونواهيها

(١) حلية الأولياء: (٢٥٨/٦).

(٢) الحلية: (١١٠/٨).

(٣) حلية الأولياء: (٨٤/٨).

باجتنابها، والمبادرة السريعة بالتوبة من الذنوب، والحياء من الله ﷻ، وهذا من علامة صحة المحبة لله تعالى، وضد ذلك الاستهانة بحرمات الله ﷻ، والجرأة عليها، وعدم الخوف والوجل عند تعديها، فإن هذا كله يدل على فساد في الباطن ومرض في القلب.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (ولو تمكن وقار الله وعظمتته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنها يحملني على المعاصي حسن الرجا، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمتته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب. المتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويحله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل. وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه)^(١).

(١) الجواب الكافي: (٩٩).

ويقول أيضاً: (على قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً... وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الشئ على المحبوب المعظم، فذلك حقيقة الحمد، والله سبحانه أعلم)^(١).

وقال هرم بن حيان لأويس القرني: أوصني. قال: توَسَّد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئاً أشد عليك منهما، بينا قلبك معك ونيتك إذا هو مدبر، وبيننا هو مدبر إذا هو مقبل، ولا تنظر في صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت)^(٢).

ومن علامات تعظيم حرمان الله عز وجل الدالة على صلاح السريرة: الغيرة على محارم الله عز وجل إذا انتهكت، والغضب لله تعالى حينما تتعدى حدوده، لأن هذا من شواهد محبته سبحانه، وفي ذلك يقول ابن عقيل في الفنون: (فأين رائحة الإيمان منك

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٩٥).

(٢) صفة الصفة: (٣/ ٥٥).

وأنت لا يتغير وجهك فضلاً عن أن تتكلم ومخالفة الله ﷻ واقعة من كل معاشر ومجاور، فلا تزال معاصي الله ﷻ والكفر يزيد، وحریم الشرع يُنتهك، فلا إنكار ولا منكر، ولا مفارقة لمرتكب ذلك ولا هجران له، وهذا غاية برد القلب وسكون النفس، وما كان ذلك في قلب قطُّ شيءٍ من إيمان، لأن الغيرة أقل شواهد المحبة والاعتقاد^(١).

ويجلي الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه الحقيقة بقوله: (ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدين، هم أقل الناس ديناً والله المستعان. وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله ﷻ وتنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق؟ وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم، فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزّن المتلمّظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل

(١) الآداب الشرعية: (١ / ٩٥).

وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه. وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون، وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم، كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل^(١).

• العلامة الخامسة: التصديق بالخبر والإذعان للأمر:

وقد سبق ذكر هذا الوصف في مبحث تعريف السريرة الصالحة والقلب السليم في قول ابن القيم رحمه الله تعالى: (اعلم أن التسليم هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع)^(٢).

وهذه العلامة يعرفها العبد من نفسه، فإذا وجدها فليحمد الله تعالى، لأن هذا هو وصف القلب السليم والسريرة الصالحة وإن وجد ضد ذلك سواء من اعتراض على الخبر بشبهة، أو رد للأمر بشهوة فليبادر إلى إصلاح هذا الفساد

(١) أعلام الموقعين: (٢/١٦٤، ١٦٥).

(٢) مدارج السالكين: (٢/١٤٧).

وتصفية القلب قبل أن يتمكن من القلب فيهلكه ويحق الخسران على صاحبه والعياذ بالله ﷻ. والتصديق بالخبر يعني التسليم لأخبار الله ﷻ، التي جاءت في كتابه ﷺ، أو على لسان رسوله ﷺ من الأخبار الماضية أو المستقبلية أو الغيوب، التي حجب العقول عن إدراكها، فيؤمن بها، ويصدق بها دون أدنى شبهة أو اعتراض.

أما التسليم والإذعان للحكم فهو نوعان:

الأول: التسليم لأحكام الله الشرعية والإذعان لها، واليقين بأنها الخير والمصلحة سواء علمت الحكمة منها أم لم تعلم. قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

الثاني: التسليم لأحكام الله الكونية القدرية، واليقين بأن فيها الحكمة البالغة سواء ظهر ذلك للعقول أم لم يظهر، ولا يتعارض مع التسليم لأحكام الله القدرية، مدافعة ما

أمكن مدافعتة منها، بل إن الله ﷻ أمرنا بمدافعة أقداره بأقداره: كمدافعة المرض بالعلاج والجوع بالأكل، فإن لم يأذن الله ﷻ بدفعها لحكمة يعلمها فيجب حينئذ التسليم والرضا بقدر الله ﷻ وقضائه، والحذر من أن يكون في القلب أدنى شبهة، من شأنها إساءة الظن بالله ﷻ، أو الاعتراض على حكمه فإن هذا من فساد السريرة.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (ذروة الإيمان: الصبر للحكم، والرضى بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب ﷻ) (١).

ومن لوازم الرضى والتسليم لأحكام الله ﷻ القدرية سلامة القلب من الغش والدغل والغل. وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (إن الرضى يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدغل والغل. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضى. وكلما كان العبد أشد رضى كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغش: قرين

(١) حلية الأولياء: (١/٢١٦).

السخط. وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضى. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى^(١).

• العلامة السادسة: أداء الأعمال الصالحة وترك المنهيات، تعبدًا لله ﷻ (محبة وخوفًا ورجاءً)، وليس من باب الإلف والعادة:

إن استحضار معنى العبودية لله ﷻ حين أداء العمل الصالح شرط في قبوله، والحصول على ثماره اليانعة في الدنيا والآخرة، وحينما يصاحب العامل شعور العبودية لله ﷻ، فإنه يكون محافظاً على شروط صحتها وقبولها عند الله تعالى، وأهم هذه الشروط الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسول الله ﷺ، وكلما كان شهود معنى العبودية لله تعالى في الأعمال أقوى وأكمل كان ذلك دليلاً على قوة الإيمان في القلب وصلاح السريرة. وعندما يغفل العبد عن شهود العبودية لله تعالى في أداء الأعمال وترك النواهي، فإن باعث العادة والإلف هو الذي يغلب على أعماله، ومن ثم تضعف ثمار هذه الأعمال، وقد يخسرها عند الله ﷻ.

(١) مدارج السالكين: (٢/٢٠٧).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة التواضع: (التواضع بأن تخدم الحق ﷻ وتعبد به بما أمرك به على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرى عليه، ولو اعتاد ضده لكان كذلك. وحاصله: أنه لا يكون باعته على العبودية مجرد رأي وموافقة هوى ومحبة وعادة، بل الباعث مجرد الأمر. والرأي والمحبة والهوى والعوائد منفذة تابعة، لا أنها مطاعة باعته، وهذه نكتة لا ينتبه لها إلا أهل البصائر)^(١).

ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع. فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة لا لنهي الشرع... ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب، ويتوانون عن الفرائض... ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام، ويصعب عليه فراقه للعادة... وإن وقعت موافقة للشرع فكما اتفق أو لأجل العادة، فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان عادة قد استمرت، ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادة غالبية)^(٢).

(١) مدارج السالكين: (٣٣٨/٢).

(٢) صيد الخاطر: (٢٣١).

ويشرح ابن القيم رحمه الله تعالى قول الهروي في منزلة التهذيب: (وهو على ثلاث درجات. الأولى: تهذيب الخدمة أن لا يخالجه جهالة، ولا يشوبها عادة، ولا يقف عندها همة).

فيقول في شرحه لقوله «لا يشوبها عادة»: (شوب العادة. وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها، معينة عليها. وصاحبها يعتقدها قرينة وطاعة، كمن اعتاد الصوم -مثلاً- وتمرن عليه. فألفتَه النفس، وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء. فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية، وإنما هو تقاضي العادة.

وعلاوة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته. كما حكى عن بعض الصالحين من الصوفية قال: حججت كذا وكذا حجة على التجريد، فبان لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي. وذلك أن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة ماء، فثقل ذلك على نفسي. فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجّات كان لحظ نفسي وإرادتها. إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع^(١).

(١) مدارج السالكين: (٢/٩٨، ٩٩).

مثالان من الواقع:

المثال الأول: رأيته بعيني وحز في نفسي، وذلك في أثناء رحلة من الرحلات الخارجية، سافرت فيها في سنة من السنوات من بلدي. وكان معنا بعض العوائل ومن بينهم أسرة من زوج وزوجة وابن لهما، وكانت المرأة قبل إقلاع الطائرة من بلدها محتشمة متسترة قد غطت وجهها وشعرها وسائر جسدها بخمار وعباءة، ولكنها ويا للأسف ما إن أقلعت الطائرة واستوت في الفضاء حتى لفت تلك العباءة ونزعت ذلك الخمار ودستها في حقيبتها اليدوية، ثم أصبحت سافرة الرأس والشعر والوجه! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فعلى أي شيء يدل هذا، إنه يدل على رقة الدين وغياب التعبد لله ﷻ في تنفيذ أحكامه، وإنما هو العادة والإلف المنبثة عن العقيدة والخوف من الله ﷻ.

المثال الثاني: القيام ببعض الأنشطة الدعوية من باب الإلف والعادة: ويقع في ذلك كثير من شباب الدعوة والعاملين في الإغاثة والمناشط الدعوية المختلفة، حيث نرى الكثير منهم يبذل وقته وجهده ويتحمل في ذلك السهر والتعب والسفر

دون ملل ولا فتور نسأل الله ﷻ أن يثيبهم على ذلك. ولكن ما يجب التنبيه عليه هنا هو أن باعث الإلف والعادة والتلذذ لهذه الأعمال أفقدها عند بعضهم شهود التعبد لله ﷻ فيها، ومن الأدلة على ذلك أن يوجد من هؤلاء الشباب من هو مقصر جداً في خدمة والديه أو أحدهما، بحيث أصبحنا نسمع الشكاوى من الأب أو الأم تجاه أبنائهم الملتزمين، وبأنهم يتثاقلون في تلبية طلبات والديهم ولو كان في أمر يسير كإحضار حاجة للبيت، أو إيصال الأب أو الأم لزيارة قريب لهما، لا يستدعي أحياناً دقائق من الوقت. وهنا يقال: أين النشاط المتواصل والسهر والتعب في مناشط الدعوة، الذي قد يستغرق ساعات، بل أياماً دون ملل ولا تعب لماذا لم يحصل التثاقل هنا، وحصل عند حاجة الوالدين مع فارق الوقت الذي يكون في العاملين؟ أليس كلاهما عبادة؟ بل إن عبادة بر الوالدين والإحسان إليهما لا يتقدمهما إلا الواجبات الكبرى، وهي مقدمة على من دونها. والجواب على هذه المفارقة والله أعلم: أن باعث العمل الدعوي عند البعض تغلب عليه العادة والإلف وحظ النفس. وبر الوالدين وخدمتهما لم تتعود عليه النفس، ولا حظ لها فيه، فصار ثقیلاً.

• العلامة السابعة: صاحب السريرة الصالحة متواضع للحق والخلق، وهو يألف ويؤلف:

يصف الرسول ﷺ المؤمن بقوله: «المؤمن مؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»^(١).

وقال أيضاً: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار؟! تحرم على كل قريب هين لين سهل»^(٢).

ويبين ابن القيم رحمه الله تعالى بعض صفات الصديقين، فيقول: (فإذا تمكن العبد في حاله، وصار له إقبال على الله، وجمعية عليه - ملكة ومقاماً راسخاً - أنس بالخلق وأنسوا به، وانبسط إليهم وحملهم على ضلعهم وبطء سيرهم. فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرفه. فإن الناس ينفرون من الكثيف ولو بلغ في الدين ما بلغ. والله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب، ويدفع عن صاحبه من الشر، ويسهل له ما توَعَّر على غيره. فليس الثقلاء بخواص الأولياء، وما ثقل أحد على

(١) مسند أحمد: (٨٨٣١)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) الترمذي في صفة القيامة، باب (٤٥)، وقال هذا حديث حسن غريب،

وصححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٠٢٢).

قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك. وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة، ولطافة وظرفاً. فترى الصادق فيها من أحلى الناس، وأطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع، وصار روحانياً سمائياً، بعد أن كان حيوانياً أرضياً فتراه أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وأطفهم قلباً وروحاً، وهذه خاصية المحبة، فإنها تلتطف وتظرف وتنظف، ومن ظرف هذه الطبقة أن لا يظهر أحدهم على جلسيه بحال ولا مقام، ولا يواجهه إذ لقيه بالحال بل بلين الجانب وخفض الجناح وطلاقة الوجه فيفرش له بساط الأنس، ويجلسه عليه، فهو أحب إليه من الفرش الوثيرة^(١).

والتواضع الذي هو من علامات السريرة الصالحة قسمان:

- ١- التواضع للحق وقبوله والانقياد له.
- ٢- التواضع للخلق وعدم التكبر والتعالي عليهم.

وقد بين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذين القسمين بذكر ما يضادهما من نوعي الكبر، وذلك في قوله: «الكبر بظرف الحق، وغمط الناس»^(٢).

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) مسلم: (٩١).

وصاحب السريرة الصالحة لا تراه إلا منقاداً للحق مسلماً له مستسليماً، لا يعارضه بشبهات عقلية ولا شهوات قلبية.

كما أنه متواضع لعباد الله ﷻ، لا يرى له فضلاً عليهم، ولا يحتقرهم، فضلاً عن أن يتفاخر أو يتعالى عليهم. ومن تواضعه لهم قبول معذرة من أساء إليه منهم، ولو كان في عذره خلل.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (إن التواضع يتولد من بين العلم بالله ﷻ ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفصيلها وعيوب عملها وآفات).

فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع، وهو: انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله ﷻ من يُحبه ويكرمه ويُقربه^(١).

(١) الفوائد: (١٥٧، ١٥٨) باختصار.

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن صور التواضع للدين والحق، فيقول: (التواضع للدين: هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان. وذلك بثلاثة أشياء:

الأول: أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين من أهل الكبر من المتكلمين، الذي عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وعزلنا النقل. إما عزل تفويض، وإما عزل تأويل.

والثانية: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد. فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر. قدموا الذوق والحال، لم يعبأوا بالأمر.

والرابعة: للمتكبرين المنحرفين من الولاية والأمرء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة. قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع التخلص من ذلك كله^(١).

نماذج من تواضع السلف للحق ووصاياهم في ذلك:

ما كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في كتابه المشهور في القضاء، وفيه: (... ولا يمنعك من قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك: أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم، ولا يبطل الحق شيء، وإن مراجعة الحق خير من التماذي في الباطل)^(٢).

وعن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه قال: (أتاه رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن علمني كلمات جوامع نوافع. فقال له عبدالله: لا تشرك به شيئاً، وزل مع القرآن حيث زال،

(١) مدارج السالكين: (٣٤٧/٢).

(٢) سنن الدارقطني: (٢٠٦/٤).

ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان حبيباً قريباً^(١).

وقال الذهبي: وفي (مسند الشافعي سماعاً): أخبرني أبو حنيفة بن سماك، حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح أن رسول الله ﷺ قال: «من قُتل له قتيلاً فهو بخير النَّظَرَيْنِ: إن أحب أخذ العقل، وإن أحب فله القودُ»^(٢).

قلت لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا؟ فضرب صدري، وصاح كثيراً، ونال مني، وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: تأخذ به؟ نعم آخذُ به، وذلك الفرض عليّ، وعلى كل من سمعه. إن الله اختار محمداً ﷺ من الناس فهداهم به، وعلى يديه، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك^(٣).

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها، ودعوا ما قلتُه^(٤).

(١) صفة الصفوة: (٤١٩/١).

(٢) رواه البخاري بلفظ قريب: (٦٨٨٠)، ومسلم: (١٣٥٥).

(٣) رواه أبو داود: (٤٥٠٤)، وأصله في البخاري: (٦٨٨٠)، ومسلم: (١٣٥٥).

(٤) سير أعلام النبلاء: (٣٤/١٠).

وعنه أيضاً: وسمعته يقول: وقد قال له رجل: تأخذ بهذا الحديث يا أبا عبد الله؟ فقال: متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً ولم آخذ به، فأشهدكم أن عقلي قد ذهب (١).

وقال الحميدي: روى الشافعي يوماً حديثاً، فقلت: تأخذ به؟ فقال أرأيتني خرجت من كنيسة، أو علي زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به؟! (٢).

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: أي سماء تُظلني، وأي أرض تقلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقل به (٣).

وعن الشافعي قال: ما كابرني أحد على الحق ودافع إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته (٤).

ويحكي ابن رجب رحمه الله تعالى أن ذلك كان هدياً لعامة أئمة السلف، فيقول: (كان أئمة السلف المجمع على علمهم

(١) سير أعلام النبلاء: (١٠ / ٣٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: (١٠ / ٣٥).

(٤) سير أعلام النبلاء: (١٠ / ٣٣).

وفضلهم، يقبلون الحق ممن أوردته عليهم، وإن كان صغيراً، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم^(١).

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على قوله ﷺ في دعائه: «وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا» بقوله: (ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل، سأل الله ﷻ أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضا، ولهذا قال بعض السلف: لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق)^(٢).

وذكر محمد بن حارث في أخبار سحنون بن سعيد عنه، قال: كان مالك وعبدالعزیز بن أبي سلمة ومحمد بن إبراهيم ابن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمرز، فكان إذا سأله مالك وعبدالعزیز أجابهما، وإذا سأله ابن دينار وذووه لا يجيبهم، فتعرض له ابن دينار يوماً، فقال له: يا أبا بكر لم تستحل مني

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير: (ص ١٠).

(٢) إغاثة اللهفان: (١/٢٩).

ما لا يحل لك؟ فقال له: يا ابن أخي وما ذاك؟ قال: يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذويي فلا تجيبنا؟! فقال: أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك؟ قال: نعم. قال: إني قد كبرت سني ودق عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني، ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان إذا سمعا مني حقاً قبلاه، وإن سمعا مني خطأ تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه.

قال ابن حارث: (هذا والله الدين الكامل والعقل الراجح، لا كمن يأتي بالهذيان، ويريد أن ينزل قوله من القلوب منزلة القرآن)^(١).

نماذج من تواضع السلف للخلق:

قال عروة بن الزبير رضي الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: (يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة. فأردت أن أكسرها)^(٢).

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ١٩٨).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).

وولى أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة. فكان يحمل حُزْمَةَ
الخطب على ظهره. ويقول: طَرَّقُوا لِلْأَمِيرِ ^(١).

وركب زيد بن ثابت مرة. فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه.
فقال: مَهْ يا ابن عم رسول الله! فقال: هكذا أمرنا أن نفعل
بكبرائنا. فقال: أرني يدك. فأخرجها إليه فقبلها. فقال: هكذا
أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢).

وقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حلالاً،
فبعث إلى معاذ حُلة مثمنة. فباعها واشترى بثمنها ستة أعبِدٍ
وأعتقهم. فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها.
فعاتبه معاذ، فقال عمر: لأنك بعت الأولى. فقال معاذ: وما
عليك؟ ادفع لي نصيبي. وقد حلفت لأضربن بها رأسك فقال
عمر رضي الله عنه: رأسي بين يديك. وقد يرفق الشاب بالشيخ ^(٣).

ومر الحسن على صبيان معهم كِسْرَ خبز. فاستضافوه
فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم،

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

وقال: اليد لهم. لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه^(١).

ويذكر أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه عيرَ بلالاً رضي الله عنه بسواده، ثم ندم. فألقى بنفسه، فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه. فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال^(٢).

وقال رجاء بن حيوة. قومت ثياب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه - وهو يخطب - باثني عشر درهما. وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة^(٣).

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشى مشية منكراً. فقال: تدري بكم شريت أمك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك - لا كثر الله في المسلمين مثله - أنا. وأنت تمشي هذه المشية؟^(٤).

وعن علي بن ثابت قال: (ما رأيت الثوري في صدر مجلس قط إنها كان يقعد إلى جنب الحائط، ويجمع بين ركبتيه)^(٥).

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الحلية: (٦/ ٣٧٨).

وعن مطرف قال: ما مدحني أحد إلا تصاغرت عليّ نفسي^(١).

وعن رجاء بن حيوة قال: (سمرت ليلة عند عمر بن عبدالعزيز فاعتل السراج، فذهبت أقوم أصلحه فأمرني عمر بالجلوس، ثم قام فأصلحه ثم عاد فجلس، فقال: قمت وأنا عمر بن عبدالعزيز، وجلست وأنا عمر بن عبدالعزيز، ولؤم بالرجل إن استخدم ضيفه)^(٢).

وعن كنانة بن جبلة السلمي قال: قال بكر بن عبدالله: إذا رأيت من هو أكبر منك، فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك، فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضل أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا ذنب أحدثته)^(٣).

(١) الحلية: (١٩٨/٢).

(٢) الحلية: (٣٣٢/٥).

(٣) صفة الصفوة: (٢٤٨/٣).

• العلامة الثامنة: محبة الخير لجميع المسلمين، والحرص على اجتماع الكلمة ونبذ الفرقة:

المسلم الصالح السريرة صاحب القلب السليم لا ينطوي قلبه على غل أو غش أو حقد على أحد من المسلمين بل يحب الخير لهم كما يحبه لنفسه ممثلاً قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١)، ومقتضى هذا الحديث أن يكره لهم ما يكره لنفسه، يفرح لفرحهم ويحزن لمصابهم. وفي ذلك يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: (وقد استحسّن الإمام أحمد ما حكى عن حاتم الأصم أنه قيل له: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرك أحد إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟ فقال: بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه، أو معنى هذا، فقال أحمد: ما أعقله من رجل)^(٢).

ومن لوازم حب الخير للمسلمين طهارة القلب من الحقد والحسد. والحسد مرض من أمراض القلوب الشائعة

(١) البخاري: (١٣)، مسلم (٤٥)، واللفظ للبخاري.

(٢) الفرق بين النصيحة والتعير: (ص ٣٢).

بين الناس وحقيقته الاعتراض على قدر الله ﷻ، وحكمته في المنع والعطاء والشدة والرخاء. وماهية الحسد كراهية نعمة الله ﷻ على عبد من عباده، وتمني زوالها عن صاحبها. وللحسد غوائل وأخطار مهلكة للدين، ويدل على فساد في السريرة، وله أسباب عدة منها:

- ١- العداوة والبغضاء، وهو أشد أبواب الحسد.
- ٢- التعزز، وحاصله أن يثقل على الحاسد أن يترفع عليه المحسود في دنيا أو دين.
- ٣- التكبر واحتقار الغير، وتوقع انقيادهم ومتابعتهم له، فإذا أصابهم نعمة وارتفع حالهم خاف الحاسد أن ينقلب الحال عليه وينفض الناس عنه.
- ٤- المماثلة والمساواة، وهذه في العادة تكون بين الأقران في دنيا أو دين.
- ٥- الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كل منهما يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له على الانفراد بمقصوده.
- ٦- حب الرياسة وطلب الجاه والثناء، فينشأ الحسد من طالب ذلك لكل من يراه أو يسمع به ممن يساميه، أو يكون نظيراً له.

٧- خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، والفرح بالشرور عليهم^(١).

والموفق من وفقه الله ﷻ، وأصلح سيرته، وطهرها من هذا المرض العضال، ووفقه للأخذ بأسباب علاج الحسد، وهي على قسمين:

الأول: قسم علمي: وهو مداواة الحسد بالعلم النافع لمرض الحسد، وهو الرضى بقدر الله ﷻ، وحكمته في منعه وعطائه وقسمه، والعلم بأن الحسد ضرر على صاحبه في الدنيا والآخرة، وأن المحسود لا يتضرر بحسد الحاسد، بل قد ينتفع.

الثاني: قسم عملي: وهو مداواة الحسد بالعمل النافع، وهو أن يكلف الحاسد نفسه نقيض قصده، فإن بعثه الحسد على ذم المحسود، فإنه يكلف لسانه المدح والثناء على المحسود، وإن حملة التكبر ألزم نفسه التواضع، والاعتذار إليه والدعاء له وبذل الأسباب في إيصال الخير له، وكبح الشر عنه.

(١) انظر: تصفية القلوب، يحيى بن حمزة اليماني: (ص ١٧٥-١٧٨).

ومن لوازم حب الخير للمسلمين المحبة لاجتماع كلمتهم، ولا سيما دعواتهم ومجاهديهم، يجب ذلك من قلبه، ويفرح به، ويسعى بقوله وفعله لجمع الكلمة ونبذ الفرقة، وقد ضرب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أروع الأمثلة في ذلك. وذلك في رسالته إلى تلاميذه، يأمرهم بجمع الكلمة، وتأليف القلوب، وإصلاح ذات البين.

يقول رحمه الله تعالى: (وتعلمون من القواعد العظيمة - التي هي من جماع الدين - تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وأمثلة ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف. وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة...) إلى أن قال في الرسالة نفسها:

(وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: ما يتعلق بي، فتعلمون رضي الله عنكم جميعاً: أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم

المسلمين - فضلاً عن أصحابنا - بشيء أصلاً، لا باطناً، ولا ظاهراً، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان، كل بحسبه.

ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً، فالأول: مشكور، والثاني: أجره على الاجتهاد، فمغفوره عنه مغفور له، والثالث: يغفر الله لنا وله ولسائر المؤمنين، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل، كقول القائل: فلان كان سبب هذه القضية، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب، ولا حول ولا قوة إلا بالله، بل مثل هذا يعود على قائله بالملام، إلا أن يكون له من حسنة، وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف... إلى أن قال رحمه الله في الرسالة نفسها:

(فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ، أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسه، والذين كذبوا وظلموا منهم في حل من جهتي)^(١).

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨ / ٥١ - ٥٧) باختصار.

ومن لوازم محبة الخير للمسلمين واجتماع كلمتهم الدالة على صلاح السريرة نبذ التعصب والحزبية المقيتة، ولا سيما بين المنتسبين لعقيدة واحدة ومنهاج واحد. فلا ترى صاحب القلب السليم والسريرة الصالحة إلا محباً لكل داعية وجماعة، تدعو إلى الله ﷻ على بصيرة ولو لم يعرفهم، أو يلتقي بهم يفرح بأي باب من الخير يفتحه الله ﷻ على يد من كان من عباده، ويفرح بأي باب من الشر يغلق على يد من كان ذلك، يحبهم ويدعو لهم، ويعينهم إن كان قادراً على ذلك.

وعن الفرق بين التحزب الممدوح والتحزب المذموم يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب - أي تصير حزباً - فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل: التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق أو الباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن الله ورسوله ﷺ أمرا بالجماعة والائتلاف،

ونها عن الفرقة والاختلاف، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، ونها عن التعاون على الإثم والعدوان^(١).

وإن ما سبق ذكره لا يعني ألا يوجد خلاف أبداً بين الأفراد أو الجماعات، كلا... فالخلاف - والله أعلم - أمر حتمي بحكم اختلاف الطبائع والمقومات الشخصية والفكرية والعقلية... إلخ، ولكن ليس كل اختلاف يوجب الفرقة والتنازع والتباغض، وأوضح مثال لذلك أن السلف رحمهم الله قد اختلفوا في كثير من المسائل، ومع ذلك كانت كلمتهم وقلوبهم مجتمعمة ولم يتفرقوا، والكلام هنا منصب على من هم في دائرة أهل السنة والجماعة ولم يختلفوا في أصولها، أما المخالفون لأهل السنة من أهل الأهواء والبدع، فإن خلافتنا معهم أصيل ومتعين، ومثل هؤلاء ينبغي أن نفارقهم ونتبرأ من بدعهم وضلالاتهم.

وإن الأمة - منذ عهد أصحاب النبي ﷺ - قد وقع بينهم اختلاف في بعض المسائل، ولم يؤد هذا الاختلاف إلى الفرقة، وعندما دخل الشيطان أو أولياؤه من الجن والإنس، وفسدت

(١) مجموع الفتاوى: (١١ / ٩٢).

بعض السرائر وصاحب ذلك جهل في مسائل الخلاف ما يجوز الخلاف فيها وما لا يجوز، أدى هذا إلى تحول الخلاف - الذي تحتمله الشريعة، وتسعه أقوال الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم من سلف هذه الأمة وأئمتهم - إلى عداوة وفرقة.

• العلامة التاسعة: العدل والإنصاف:

وهذه السمة الكريمة التي يعز وجودها في أكثر الناس اليوم، هي من أبرز صفات أهل القلوب السليمة والسرائر الصالحة، حيث إنه لا يوجد من هذه صفته إلا وهو من المعظمين لله تعالى في قلوبهم الخائفين منه المطيعين له في السراء والضراء على أنفسهم وعلى عباد الله عز وجل.

وصاحب القلب السليم، والسريرة الصالحة المخلص لله تعالى لا يرى إلا عادلاً منصفاً، لا يبخس الناس حقوقهم ولا يجور عليهم، ولا ينسى خيرهم وبلاءهم، يتثبت في الأخبار، ولا يسارع بنقل الشائعات، يحب الخير للمسلمين، وينصف من نفسه ولا يكيل بمكيالين، رائده الحق يدور معه حيث دار.

ومن مظاهر العدل والإنصاف التي تدل على صلاح السريرة:

(أ) عدم قبول الأخبار والشائعات دون تثبت:

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]،

وفي تفسير هذه الآية يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:
(قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لا تقل.

وقال العوفي عنه: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] (١) أ.هـ.

والتثبت من الأخبار والأقوال يعني التثبت من الأمور الآتية:

* التثبت من الخبر المنقول فقد يكون كذباً وافتراءً.

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٩).

* وقد يكون الخبر صحيحاً، ولكن له ملابسات وظروف لم يذكرها الناقل، وبعد التثبت وتبين هذه الملابسات قد يظهر عذراً لأصحابها.

* وقد يكون الخبر بعد التثبت صحيحاً، وأنه لا عذر لأصحابه فيه، ولكن يظهر من التثبت أنه موقف خاص له ظروفه، وليس موقفاً عاماً ومنهجاً مطرداً، وإذا كان صاحب الخطأ عالي الهمة في العلم والدعوة والجهاد، احتملت له الهنات، وانغمر خطؤه في بحر حسناته.

والمقصود أن من لوازم العدل الذي هو من علامات الإخلاص لله ﷻ أن يتثبت فيما بقوله وينقله من الأخبار والأحكام، حتى لا يقع في ظلم العباد. ورحم الله الإمام ابن تيمية، حيث يقول: (والله يجب الكلام بعلم، وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم)^(١).

(ب) العدل في نقد المواقف الخاطئة:

لا عصمة لبني البشر إلا للرسول عليهم الصلاة والسلام، وكما قال الرسول ﷺ: «كل بني آدم خطاء»^(٢) الحديث.

(١) مجموع الفتاوى: (٩٦/١٦).

(٢) الترمذي: (٢٤٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٠٢٩).

وتكثر الأخطاء حينما يكون هناك عمل ونشاط، وبخاصة في ميادين الدعوة وكثرة النوازل والمفاجآت، والحاجة فيها إلى قرارات ومواقف سريعة. وحينئذ لا بد لأهل الدعوة المباشرين له، والداعمين والمحبين له أن يقدرُوا هذه الظروف، وأن يحدروا العدوان في معالجة ونقد الأخطاء، وأن يجعلوا من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، والسلف الصالح قدوة صالحة في العدل والإنصاف.

والناس في موقفهم من الأخطاء ونقدهم لها ولأصحابها طرفان جائران ووسط عدل. وذلك حسب ما ينطوي عليه القلب من صلاح أو فساد.

الطرف الأول: أهل الغلو والإفراط:

وهم الذين أفرطوا في نقد الأخطاء وأصحابها، حتى جعلوا من الفروع أصولاً، ومن بعض الجزئيات كليات، وجعلوا همهم تصيد الأخطاء، والفرح بها وتضخيمها، ولم يرحموا من وقع فيها من المجاهدين وطلاب العلم، بل جاروا عليهم في ذلك حتى أساءوا الظن بهم، وبنواياهم،

ومقاصدهم، وبخسوهم حقهم، وأهدروا حسناتهم وما لهم من بلاء وجهاد ودعوة وعلم وعمل وتعليم.

ولا يخفى ما في هذا الموقف من عدوان، ومجانبة للعدل والإنصاف. وفي أمثال هؤلاء يقول الشعبي - رحمه الله تعالى -:
والله لو أصبتُ تسعاً وتسعين مرة، وأخطأت واحدة، لأخذوا
الواحدة وتركوا التسع والتسعين^(١).

ولو أن هؤلاء المنتقدين حاسبوا أنفسهم، وسألوها حينما يخطئون: هل يودون أن يعاملهم إخوانهم بهذا المنهج الجائر، كما يعاملون غيرهم لكان في ذلك سبب لمراجعة أنفسهم، واكتشافهم لهذا المنهج الخاطيء في نقد الرجال ومعالجة الأخطاء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:
(فليس من شرط أولياء الله المتقين أن لا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأً مغفوراً لهم، بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقاً، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة.

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥].
 فقد وصفهم الله بأنهم متقون. و(المتقون) هم أولياء الله. ومع هذا فأخبر أنه يكفر عنهم أسوء الذي عملوا. وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان^(١).

ويعلق الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - على قوله:
 ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَٰٓيَ ۖ أَلَّا تَعْدِلُوا ؕ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾
 [المائدة: ٨]. فيقول: (فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم، بل مجرد لهم العداوة وأنواع الأذى، ولعله

(١) مجموع الفتاوى: (١١/٦٦، ٦٧).

لا يدري أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه علماً وعملاً،
ودعوة إلى الله على بصيرة، وصبراً من قومهم على الأذى في
الله، وإقامة الحجة لله ومعدرة لمن خالفهم بالجهل^(١).

وكما يجب المرء في الناس أن يعدلوا معه، فكذلك الناس
يجبون أن يعدل معهم في تناول عيوبهم، وأسوق بهذه المناسبة
تلك المحاوراة النافعة التي بين فيها المسور بين مخرمة معاوية
ابن أبي سفيان رضي الله عنه بعض عيوبه، وما ذارده عليه معاوية في
ذلك، لتكون منهجاً في معالجة أخطائنا.

عن عقيل، ومعمر، عن الزهري، حدثني عروة أن
المسور بن مخرمة أخبره أنه وفد على معاوية، ففرض حاجته،
ثم خلا به، فقال: يا مسور! ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال:
دعنا من هذا وأحسن. قال: لا والله، لتكلمني بذات نفسك
بالذي تعيب عليّ. قال مسور: فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلا
بينت له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تعدُّ لنا يا مسور ما نلي
من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد
الذنوب، وتترك الإحسان؟ قال: ما تذكر إلا الذنوب. قال

(١) بدائع التفسير: (٢/١٠٥).

معاوية: فإننا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم تغفر؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحق مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخير بين أمرين: بين الله وبين غيره، إلا اخترت الله على ما سواه، وإني لعلى دين يقبل فيه العمل، ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها، قال: فخصمني. قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه^(١).

الطرف الثاني: أهل التفريط والإضاعة:

وهؤلاء وإن كانوا قد فرطوا في الأخذ بالحق ورد الباطل، ووقعوا في التقليد الأعمى، إلا إنهم وقعوا في المقابل في الغلو في الرجال، والتعصب لأخطائهم، ولسان حالهم يقول بالعصمة لمن قلدوهم.

ولذا ترى الواحد منهم يزعجه، ويكدر خاطره إذا قيل: إن شيخه وأستاذه مخطئ في بعض ما ذهب إليه من قول أو عمل، ويدفعه تعصبه لشيخه وغلوه في محبته له وتأديه معه

(١) سير أعلام النبلاء: (٣/١٥٠).

إلى تصحيح كل ما يقول أو يفعل، مبرراً ذلك بمبررات
ساحجة متكلفة.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في وصف أهل
الطرفين السابقين بعد أن ذكر فضل أئمة الإسلام:
(... وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله ﷺ لا يوجب
قبول كل ما قالوه. وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي
عليهم ما جاء به الرسول ﷺ فقالوا بمبلغ علمهم - والحق في
خلافها - لا يوجب اطراح أقوالهم جملة، وتنقصهم والوقعة
فيهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما،
فلا نوثم ولا نعصم، ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في علي رضي الله عنه
ولا مسلكهم في الشيخين رضي الله عنهما)^(١).

وقال رحمه الله تعالى في معرض رده على الهروي رحمه
الله تعالى في منازله: (هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى
مغفرتها لكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق وصحة
المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن
العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ. وهذه الشطحات أوجبت
فتنة على طائفتين من الناس:

(١) أعلام الموقعين: (٣/٣٥٨).

إحدهما: حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار. وأساءوا الظن بهم مطلقاً، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وشفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: - وهو أهل العدل والإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلوم، ولا للمعلوم السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل، ورددوا ما يرد^(١).

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٢٢٠-٢٢٤) باختصار.

الموقف العدل والوسط المتوازن:

(وهؤلاء هم أهل السرائر الصالحة) وهم الذين ذكرهم ابن القيم - رحمه الله تعالى - في ما سبق وسماهم بالطائفة الثالثة، حيث قال عنهم: (وهم أهل العدل والإنصاف، الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد)^(١).

أي أنهم لم يقعوا فيما وقع فيه أهل الغلو والإفراط المضخمين للأخطاء، المهدرين لحق من وقع منه الخطأ، والمهدرين لحسناتهم، المتهمين لنياتهم، بل حفظوا لهم حقوقهم، ولم ينسوا لهم بلاءهم وجهادهم وحسناتهم، ووضعوا أخطاءهم في حجمها الذي تستحقه، ووازنوا بين حسناتهم وسيئاتهم. وفي المقابل لم يذهبوا إلى تقديس الأشخاص، وادعاء العصمة لهم - سواء بلسان المقال أو الحال - بل نظروا للمخطئين بأنهم غير معصومين، ولم يدفعهم حبهم وأدبهم مع شيوخهم إلى تقليدهم في كل ما يقولونه، أو أن يسحبوا ذيل الحسن على كل ما يفعلونه.

(١) المصدر السابق.

نماذج مضيئة من عدل السلف مع مخالفيهم:

النموذج الأول:

عن عبدالرحمن بن شماس قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل مصر. قالت: كيف وجدتم ابن حديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل من فرس ولا بعير إلا أبدل مكانه بعيراً، ولا غلاماً إلا أبدل مكانه غلاماً، قالت: إنه لا يمنعني قتله أخي أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله، إني سمعته يقول: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشق عليه»^(١).

النموذج الثاني:

قال يونس الصديقي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة^(٢).

(١) نزهة الفضلاء: (٣٢٧/١)، والحديث رواه مسلم: (١٨٢٨).

(٢) سير أعلام النبلاء: (١٦/١٠).

النموذج الثالث:

عن يونس بن عبدالأعلى قال: قال لي الشافعي: (يا يونس إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه، فإياك أن تبادره العداوة، وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشك، ولكن ألقه وقُلْ له: بلغني عنك كذا وكذا، واحذر أن تسمي له المبلغ، فإن أنكرك ذلك فقل له: أنت أصدق وأبر. لا تزيدن على ذلك شيئاً، وإن اعترف بذلك، فرأيت له في ذلك وجهاً لعذر فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك؟ فإن ذكر ما له وجه من العذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك وجهاً لعذر، وضاق عليك المسلك، فحينئذ أثبتها عليه سيئة، ثم أنت في ذلك بالخيار، إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى وأبلغ في الكرم، لقول الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۗ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فإن نازعتك نفسك بالمكافأة، ففكر فيما سبق له لديك من الإحسان، فعدها ثم أبدر له إحساناً بهذه السيئة، ولا تبخسن باقي إحسانه السالف بهذه السيئة، فإن ذلك الظلم بعينه. يا يونس

إذا كان لك صديق فشد يدك به، فإن اتخاذا الصديق صعب
ومفارقته سهل^(١).

النموذج الرابع:

وقال الذهبي في ترجمته لمحمد بن نصر المروزي: (لو أننا
كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له،
قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن
منده ولا من هو أكبر منهما. والله هو هادي الخلق إلى الحق،
وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفضاظة)^(٢).

النموذج الخامس:

قال الذهبي في ترجمة قتادة - رحمه الله تعالى - : (وهو
حجة بالإجماع إذا بين السماع، فإنه مدلس معروف بذلك،
وكان يرى القدر نسأل الله العفو، ومع هذا فما توقف أحد
في صدقه وعدالته وحفظه، ولعل الله يعدر أمثاله ممن تلبس
ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله

(١) صفة الصفة: (٢/٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) نزهة الفضلاء: (٢/١١٢٧).

حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل . ثم إنَّ الكبير من أئمة العلم إذا كَثُرَ صوابُه، وعُلِمَ تحرُّيه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحُه وورعُه واتباعه، يُغفر له زلله، ولا نضلله ونظره، وننسى محاسنه. نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك^(١).

النموذج السادس:

رسالة الشيخ حمد بن عتيق إلى صديق حسن خان -
رحمهما الله تعالى - وما فيها من العدل والإنصاف والأدب
الجم بين أهل العلم - وإن اختلفوا - وهي رسالة طويلة
اقتطف منها ما يلي:

(من حمد بن عتيق إلى الإمام المعظم والشريف المقدم
المسمى محمد الملقب صديق زاده الله من التحقيق وأجاره في
مآله من عذاب الحريق.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فالموجب
للكتاب إبلاغ السلام والتحفّي والإكرام، شيد الله بك قواعد

(١) سير أعلام النبلاء: (٥ / ٢٧١).

الإسلام، ونشرك السنن والأحكام. اعلم وفقك الله أنه كان يبلغنا أخبار سارة بظهور أخ صادق ذي فهم راسخ وطريقة مستقيمة، يقال له صديق فنفرح بذلك ونسر، لغرابة الزمان وقلّة الإخوان وكثرة أهل البدع والأغلال، ثم وصل إلينا كتاب الحطة وتحرير الأحاديث في تلك الفصول، فازددنا فرحاً وحمدنا لربنا العظيم لكون ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. وكان لي ابن يتشبت بالعلم ويجب الطلب، فجعل يتوق إلى اللحوق بكم والتخرج عليكم والالتقاط من جواهركم، لذهاب العلم في أقطارنا وعموم الجهل وغلبة الأهواء. فبينما نحن كذلك إذ وصل إلينا التفسير بكماله فرأينا أمراً عجيباً ما كنا نظن أن الزمان يسمح بمثله وما قرب منه، لما من التفاسير التي تصل إلينا من التحريف والخروج عن طريقة الاستقامة، وحمل كلام الله على غير مراد الله، وركوب التفاسير في حمله على المذاهب الباطلة، وجعلت السنة كذلك، فلما نظرنا في ذلك التفسير تبين لنا حسن قصد منشيئه، وسلامة عقيدته، وتبعده من تعمد مذهب غير ما عليه السلف الكرام. فعلمنا أن ذلك من قبيل قوله ﷺ:

﴿وَعَلَّمَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً كما يحب ربنا ويرضى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فزاد اشتياق التائق وتضاعفت رغبته، ولكن العوائق كثيرة والمثبطات مضاعفة، والله على كل شيء قدير فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس. فمن العوائق تباعد الديار وطول المسافات، فإن مقرنا في فلج اليمامة، ومنها خطر الطريق وكثرة القطاع وتسلط الحرامية في نهب الأموال واستباحة الدماء وإخافة السبيل، ومنها ما في الطريق من أهل البدع والضلال بل وأهل الشرك من رافضي وجهمي إلى معتزلي ونحوهم، وكلهم أعداء قاتلهم الله. ربنا آتانا من لدنك رحمة، وهبى لنا من أمرنا رشداً. ومع ذلك فنحن نرجو أن يبعث الله لهذا الدين من ينصره، وأن يجعلنا من أهله، وأن يسهل الطريق ويرفع الموانع، ونسأله أن يمن بذلك فهو القادر عليه.

ولما رأينا ما منَّ الله به عليكم من التحقيق وسعة الاطلاع، وعرفنا تمكنكم من الآلات، وكانت نونية ابن القيم المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية بين أيدينا، ولنا

بها عناية ولكن أفهامنا قاصرة وبضاعتنا مزجاة من أبواب العلم جملة، وفيها مواضع محتاجة إلى البيان، ولم يبلغنا أن أحداً تصدى لشرحها، غلب على الظن أنك تقدر على ذلك. فافعل ذلك يكن من مكاسب الأجور، وهي واصله إليك إن شاء الله، فاجعل قرأها شرحها وبيان معناها، وأصلح في النية ذلك تكن حرباً لجميع أهل البدع، فإنها لم تبق طائفة منهم إلا ردت عليها، فهذان مقصدان من بعثها إليك: أحدهما: شرحها، والثاني: الاستعانة بها على الرد على أهل البدع، لأن مثلك يحتاج إلى ذلك، لكونك في زمان الغربية وبلاد الغربية، فإن كنت حريصاً على ذلك فعليك بكتاب العقل والنقل، والتسعينية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة والجوش الإسلامية لابن القيم، ونحوهن من كتبها فإن فيها الهدى والشفاء. ولنا مقصد رابع مهم، وهو أن هذا التفسير العظيم وصل إلينا في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ١٢٩٧ هجرية، فنظرت فيه وفي هذا الشهر وفي شوال، فتجهز الناس للحج ولم أتمكن إلا من بعضه ومع ذلك وقفت فيه على مواضع تحتاج إلى تحقيق، وظننت أن لذلك سببين:

أحدهما: أنه لم يحصل منكم إمعان نظر في هذا الكتاب بعد إتمامه، والغالب على من صنف الكتب كثرة ترداده وإبقائه في يده سنين يبيده ويعيده، ويمحو ويثبت، ويبدل العبارات، حتى يغلب على ظنه الصحة غالباً، ولعل الأصحاب عاجلوك بتلقيه قبل ذلك.

والثاني: أن ظاهر الصنيع أنك أحسنت الظن ببعض المتكلمة، وأخذت من عباراتهم بعضاً بلفظه وبعضاً بمعناه، فدخل عليك شيء من ذلك ولم تمنع النظر فيها، ولهم عبارات مزخرفة فيها الداء العضال وما دخل عليك من ذلك، فنقول: إن شاء الله بحسن القصد واعتماد الحق وتحري الصدق والعدل. وهو قليل بالنسبة إلى ما وقع فيه كثير ممن صنف في التفسير وغيره. وإذا نظر السني المنصف في كثير من التفاسير وشرح الحديث وجد قلته وما هو أكثر منه، وقد سلكتم في هذا التفسير في مواضع منه مسلك أهل التأويل، مع أنه قد وصل إلينا لكم رسالة في ذم التأويل مختصرة، وهي كافية ومطلعة على أن ما وقع في التفسير صدر من غير تأمل، وأنه من ذلك القليل. وكذلك في التفسير من مخالفة

أهل التأويل ما يدل على ذلك. وأنا اجترأت عليك - وإن كان مثلي لا ينبغي له ذلك - لأنه غلب على ظني إصغائك إلى التنبيه، ولأن من أخلاق أئمة الدين قبول التنبيه والمذاكرة، وعدم التكبر وإن كان القائل غير أهل، ولأنه بلغني عن بعض من اجتمع بك أنك تحب الاجتماع بأهل العلم، وتحرص على ذلك، وتقبل العلم ولو ممن هو دونك بكثير، فرجوت أن ذلك عنوان توفيق، جعلك الله كذلك وخيراً من ذلك...

فنسأل الله أن يلحقنا بأثار الموحدين، وأن يحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة بمنه وكرمه. وقد اجترأت عليك بمثل هذا الكلام نصحاً لله ورسوله، رجاء من الله أن ينفع بك في هذا الزمان، الذي ذهب فيه العلم النافع ولم يبق إلا رسومه، وأنا أنتظر منك الجواب ورد ما صدر مني من الخطاب. ثم إنني لما رأيت الترجمة وقد سمي فيها بعض مصنفاتك، وكنت في بلاد قليلة فيها الكتب، وقد ابتليت بالدخول في أمور الناس لأجل ضرورتهم كما قيل: خلا لك الجو فيضي واصفري. وألتمس من جنابك تفضل علينا ببلوغ السؤل من أقضية الرسول، والروضة الندية شرح الدرر البهية، ونيل

المرام شرح آيات الأحكام. فنحن في ضرورة عظيمة إلى هذه كلها، فاجعل من صالح أعمالك معونة إخوانك ومحبيك بها، وابعث بها إلينا مأجوراً إن شاء الله تعالى، وليكن ذلك على يد الأخ أحمد بن عيسى الساكن في مكة المكرمة المشرفة، واكتب لنا تعريفاً بأحوالكم. ولعل أحداً منكم من يتلقى هذا العلم ويعتني به ويحفظه عنك، واحرص على ذلك طمعاً أن يجمع لك شرف الدنيا والآخرة، ونسأل الله أن يهب لك ذلك.

ثم اعلم أني قد بلغت السبعين، وأنا في معترك الأعمار لا آمن هجوم المنية، ولي أولاد ثمانية، منهم ثلاثة يطلبون العلم كبيرهم سعد المذكور أولاً، ويليه عبدالعزیز، وتحتة عبداللطيف. ونرجو أنهم أهل الكتب وممن يعتز بها ويحفظها. وبقيتهم صغار منهم من هو في المكتب ومن دعائنا: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، لا تنسنا من صالح دعائك كما هو لك مبذول، والسلام عليكم ورحمة الله

وبركاته، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم^(١) أ.هـ.
ملخصاً.

العلامة العاشرة: لصلاح السريرة:

الصدق في الحديث، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانة، وتنفيذ الوعد، وتقوى الله ﷻ في الخصومة، فكل هذه الخصال تدل على صلاح في السريرة، لأن أضداد هذه الصفات إنما هي من خصال المنافقين، الذين فسدت سرائرهم، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ بقوله: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»^(٢)، ويدخل في ذلك ذو الوجهين، الذي يلقي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

ويقول ابن رجب رحمه الله تعالى: (النفاق الأصغر كله راجع إلى اختلاف السريرة والعلانية، كما قال الحسن.

(١) رسالة من الشيخ العتيق للشيخ صديق حسن خان، ينبه فيها على أخطاء وقعت له في تفسيره.

(٢) البخاري: (٣٤)، ومسلم (٥٨) واللفظ له.

وقال الحسن أيضاً: (من النفاق اختلاف القلب واللسان، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج)^(١).

العلامة الحادية عشرة:

صدق التوكل على الله ﷻ، وحسن الظن به، والتبرؤ من الحول والقوة، مع فعل الأسباب المأمور بها شرعاً طاعة لله ﷻ دون التعلق بها، وإنما التعلق بخالقها ﷻ ومسببها، وهذا بدوره يضمن على صاحب السريرة الصالحة الاطمئنان، وارتفاع خوف المخلوق من قلبه، لأنه يتمثل قول النبي الصالح هود عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

العلامة الثانية عشرة:

كثرة ذكر الله ﷻ واستغفاره، وهذا من علامة محبة العبد لربه ﷻ، لأن من علامة صدق المحبة كثرة الذكر للمحبوب، ودوام ورود ذكره على القلب.

(١) جامع العلوم والحكم: (١/٤٣٣).

فهو علامة وسبب لصلاح السريرة فيه تصلح السريرة،
وتزكو القلوب، وهو علامة على صلاح القلوب والسرائر
فهو إذن علامة وسبب.

• العلامة الثالثة عشرة: الدعوة إلى الله ﷻ والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر:

إن من علامة صلاح القلب: الصدق في محبة الله ﷻ
ومحبة دينه، وهذا يقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل
المؤمن الشاغل، حيث لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال، وهو
يرى دين الله ﷻ ينتهك ويقصى من الحياة، ومن ثم يرى الفساد
المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم
وأموالهم، إن المؤمن الصادق الإيمان صاحب السريرة
الصالحة لا يُقدّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور
الدنيا الفانية.

فمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه
يترك، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت
اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق،

وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ولرسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل^(١) أ.هـ.

والحاصل أنه كلما كان العبد صادقاً في إيمانه موقناً بوعد ربه صالحاً في سريره كان مندفعاً مضحياً صابراً محتسباً في سبيل الله ﷻ، يعظم حرمة الله، ويغار على محارم الله، وينصح لعباد الله ﷻ.



(١) أعلام الموقعين: (٢/٤٧٦).

إِفْضِكِ الْرَّايِعَ

من ثمرات السريرة الصالحة

للسريرة الصالحة ثمرات طيبة وعواقب حميدة، يغتبط
ويسر بها صاحبها في الدنيا والآخرة ومن أهمها ما يلي:

الثمرة الأولى:

محبة الله عز وجل ومعيته لصاحب السريرة الصالحة،
وولايته له.

مر بنا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى
صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار بأصابعه إلى صدره (١)،
وكذلك قوله ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما
تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي
يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي
يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله
التي يمشي بها...» (٢) الحديث.

(١) مسلم: (٢٥٦٤).

(٢) البخاري: (٦٥٠٢).

ومعلوم أن أول ما يدخل في الفرائض والنوافل فرائض القلب ونوافله. وجاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أحب العباد إلى الله تعالى الاتقياء الأصفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أولئك هم أئمة الهدى ومصابيح العلم»^(١).

وإذا أحب الله وعزك عبداً تواردت عليه أسباب التوفيق والتيسير والهناء في الدنيا والآخرة، وأثمرت له هذه المحبة ثمرات يانعة في دينه ودنياه وهي ما سيرد ذكره في الثمرات الآتية.

الثمرة الثانية:

مضاعفة الحسنات وقبولها عند الله وعزك، وغفران الذنوب، ومحو السيئات:

فالله وعزك لا يتقبل إلا من المتقين، والمتقون هم الذين أصلحوا ظواهرهم وبواطنهم، فجاءت على ما يحبه الله ويرضاه. والعمل الصالح يكون له من الفضل والقبول عند الله وعزك بقدر ما يقوم بقلب صاحبه من اليقين والمحبة

(١) مستدرک الحاكم، وقال صحيح الإسناد: (٥١٨٠).

والإخلاص والخوف والرجاء، وغيرها من أعمال القلوب والسرائر. قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وترى الرجلين يدخلان في عبادة من العبادات: كالصلاة والصيام والصدقة والحج والدعوة والجهاد، ويكون بينهما في الثواب والأجر كما بين السماء والأرض، وذلك حسب ما قام في قلبيهما من العبادات الباطنة.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فالمحو والتكفير يقع بما يُتقبل من الأعمال. وأكثر الناس يقصرون في الحسنات، حتى في نفس صلاتهم. فالسعيد منهم من يُكتب له نصفها، وهم يفعلون السيئات كثيراً. فلهذا يُكفّر بما يُقبل من الصلوات الخمس شيء، وبما يُقبل من الجمعة شيء، وبما يُقبل من صيام رمضان شيء آخر. وكذلك سائر الأعمال، وليس كل حسنة تمحو كل سيئة، بل المحو يكون للصغائر تارة، ويكون للكبائر تارة، باعتبار الموازنة).

والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر. كما في

الترمذي وابن ماجة وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيُنشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجلٌ منها مدّ البصر. فيقال: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يارب. فيقول: لا ظلم عليك. فتخرج له بطاقة قدر الكف، فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع هذه البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فتثقلت البطاقة وطاشت السجلات»^(١).

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص. وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم، كما ترجح قول صاحب البطاقة.

وفي لفظ في الصحيحين: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلح لسانه من العطش فنزعت له موقها

(١) الحديث مع اختلاف في الألفاظ عن عبد الله بن عمرو بن العاص في سنن الترمذي: (٤/١٢٣، ١٢٤)، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٨٠٩٥).

فسقته به فغفر لها»^(١) وفي لفظ في الصحيحين أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوكٍ على الطريق فأخّره، فشكر الله له، فغفر له»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة، ربطتها: لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت»^(٣).

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كلّ بغى سقت كلباً يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، فغُفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وليس كل من نحى غصن شوكٍ عن الطريق يغفر له.

(١) البخاري (٣٢٨٠). واللفظ لمسلم (٢٢٤٥). والموق: هو الخف فارسي معرب.

(٢) البخاري (٦٥٢)، ومسلم: (١٩١٤).

(٣) البخاري: (٣٣١٨)، ومسلم: (٢٢٤٢).

قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ
الَّتَقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. فالناس يشتركون في
الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول،
والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب.

وفي الأثر: إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً،
وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب.

فإذا عُرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر
قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل، لا يعرف
مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله. عرف الإنسان أن ما
قاله الرسول كله حق، ولم يضرب بعضه ببعض.

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاً وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وفي الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله: أهو
الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعاقب؟ قال:
«لا يا ابنة الصديق، بل هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق،
ويخاف أن لا يقبل منه»^(١).

(١) روي هذا الحديث بألفاظ متقاربة في سنن ابن ماجة: (٢ / ١٤٠٤)، وفي
سنن الترمذي: (٢٤ باب ومن سورة المؤمنون).

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(١).

وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله، وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحداً أن يحصل له مثله ممن بعدهم. وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور، وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس، وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة.

وهذا مما يُعرف به أن أبا بكر رضي الله عنه لن يكون أحد مثله، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد. قال أبو بكر بن عيَّاش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه.

وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول، مؤمنين به مجاهدين معه، إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم. والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب. والناس يتفاضلون في

(١) البخاري: (٣٦٧٣)، ومسلم: (٢٥٤١).

ذلك تفاضلاً عظيماً، وهذا مما يحتج به من رجح كل واحد من الصحابة على كل واحد ممن بعدهم، فإن العلماء متفقون على أن جملة الصحابة أفضل من جملة التابعين، لكن هل يفضل كل واحد من الصحابة على كل واحد ممن بعدهم، ويفضل معاوية على عمر بن العزيز؟

ذكر القاضي عياض وغيره في ذلك قولين، وأن الأكثرين يفضلون كل واحد من الصحابة، وهذا مأثور عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما^(١). أ.هـ.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرتهم، كيف يغبنون قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب التقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين. وهذا من جواهر الكلام، وأدلة على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير ﷺ، فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْبًا اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال ﷺ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ

(١) منهاج السنة: (٦/٢١٨)، وما بعده باختصار.

يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴿٣٧﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا»^(١)، وأشار إلى صدره.

فالكيس يقطع المسافة بصحة العزيمة، وعلو المهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق^(٢).

وقال في موطن آخر، وهو يعدد فضائل العلم والعلماء: (الوجه الثاني والسبعون: أن صاحب العلم أقل تعباً وعملاً وأكثر أجراً، واعتبر هذا بالشاهد، فإن الصُّنَّاع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى، حيث قال: «أفضل الأعمال الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد»^(٣)، فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله

(١) مسلم: (٢٥٦٤).

(٢) الفوائد: (ص ١٤١).

(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع: (١٠٩١)، وأصله عند البخاري:

(٢٦)، ومسلم: (٨٣).

وتصديقه وهو أفضل الأعمال، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال.

والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولاً، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة. ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملاً وحباً وصوماً وصلاة وقراءة منه. قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهذا موضوع المثل المشهور.

من لى بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول^(١) وروى صاحب الحلية الحافظ أبو نعيم بسنده قال: (حدثنا سليمان بن أحمد ثنا عبيد بن محمد الكشوري ثنا همام بن سلمة ابن عقبة قال ثنا غوث بن جابر قال ثنا عقيل بن معقل بن منبه. قال سمعت عمي وهب بن منبه يقول: يا بني أخلص

(١) مفتاح دار السعادة: (١/١٣٣، ١٣٤).

طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق الله فيها فعلك في العلانية، فإن من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب موضعه وأبلغه قراره، وإن من أسر عملاً صالحاً لم يطلع عليه أحد إلا الله فقد اطلع عليه من هو حسبه، واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره، فلا تخافن على عمل صالح أسرته إلى الله وَعَلَيْكُمْ ضياعاً، ولا تخافن من ظلمه ولا هضمه، ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة، كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها، والسريرة عرقها، إن نخر العرق هلكت الشجرة كلها وورقها وعودها، وإن صلحت صلحت الشجرة كلها ثمرها وورقها، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفياً لا يرى منه شيء. كذلك الدين لا يزال صالحاً ما كان له سريرة صالحة، يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتها من قبل عرقها، فإن فرعها زيتتها وجمالها، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين، فإن العلانية معها تزين الدين وتجمله، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه وَعَلَيْكُمْ (١).

(١) حلية الأولياء: (٧٠ / ٤).

الثمرة الثالثة:

إلقاء الله ﷻ المحبة لصالح السريرة بين الناس، ووضع
القبول له عندهم:

فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه أن
رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله
يحب فلاناً فأحبيه. فيحبه جبريل، فينادى جبريل في أهل السماء:
إن الله يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول
في الأرض»^(١)، وهذه المحبة إنما نشأت من علم الله ﷻ بصالح
سريرة العبد وسلامة قلبه ومحبة الله ﷻ له.

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (إن للخلوة
تأثيرات تبين في الجلوة، كم من مؤمن بالله ﷻ يحترمه عند
الخلوات فيترك ما يشتهي حذراً من عقابه، أو رجاء لثوابه،
أو إجلالاً له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً على
مجمر، فيفوح طيبه، فيستنشقه الخلائق، ولا يدرون: أين هو.
وعلى قدر المجاهدة في ترك ما يهوى تقوى محبته، أو
على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب،

(١) البخاري: (٣٢٠٩)، ومسلم: (٢٦٣٧).

ويتفاوت تفاوت العود. فترى عيون الخلق تعظم هذا الشخص، وألسنتهم تمدحه، ولا يعرفون لم. ولا يقدرّون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته.

وقد تمتد هذه الأرايح بعد الموت على قدرها، فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة، ثم ينسى. ومنهم من يُذكر مئة سنة، ثم يخفى ذكره وقبره. ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبداً. وعلى عكس هذا من هاب الخلق، ولم يحترم خلوته بالحق. فإنه على قدر مبارزته بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب، يفوح منه ريح الكراهة، فتمقتة القلوب. فإن قلّ مقدار ما جنى قلّ ذكر الألسن له بالخير، وبقي مجرد تعظيمه.

وإن كثر كان قصارى الأمر سكوت الناس عنه، لا يمدحونه ولا يذمونه.

ورب حال بذنب كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا والآخرة، وكأنه قيل له: إبق بما آثرت. فيبقى أبداً في التخييط.

فانظروا إخواني إلى المعاصي، آثرت وعثرت. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى، فيُلقي الله

بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر. فتلتمحوها مسطرته،
واعرفوا ما ذكرته. ولا تهملوا خلواتكم ولا سرائركم، فإن
الأعمال بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص^(١).

ويقول في موطن آخر: (والله لقد رأيت من يكثر الصلاة
والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو
عنه، وقدره في النفوس ليس بذاك.

ورأيت من يلبس فاخر الثياب، وليس له كبير نفل ولا
تخشع، والقلوب تتهافت على محبته، فتدبرت السبب فوجدته
السريرة، كما روي عن مالك: أنه لم يكن له كبير عمل من
صلاة وصوم، وإنما كانت له سريرة.

فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب
بنشر طيبه.

فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر^(٢).

ويقول في موطن ثالث: (نظرت في الأدلة على الحق ﷺ
فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيت من أعجبها أن الإنسان

(١) صيد الخاطر: (١٧٠، ١٧١).

(٢) صيد الخاطر: (ص ٢٠٧).

قد يُخْفِي ما لا يرضاه الله عز وجل، فيُظهره الله سبحانه عليه ولو بعد حين، ويُنطق الألسنة به، وإن لم يشاهده الناس.

وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق، فيكون جواباً لكل ما أخفى من الذنوب، وذلك ليعلم الناس أن هنالك من يجازي على الزَّلَل، ولا ينفع من قدره وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يضاع لديه عمل.

وكذلك يُخْفِي الإنسان الطاعة فتظهر عليه، ويتحدث الناس بها وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنباً، ولا يذكرونه إلا بالمحاسن، ليعلم أن هنالك رباً لا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ.

وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتخبه، أو تأباه وتذمه، أو تمدحه وفق ما يتحقق بينه وبين الله تعالى، فإنه يكفيه كل هم، ويدفع عنه كل شر.

وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر الحق، إلا أنعكس مقصوده، وعاد حامده ذاماً ^(١). أ.هـ.

فهذا من أعظم ثمرات صلاح السريرة، لأن الكلمة الصادقة عندما تنبع من قلب صالح طيب تفعل فعلها في

(١) صيد الخاطر: (ص ٩٨).

القلوب، ويكتب الله **عَجَلًا** لها القبول عند الناس، وهذا أمر مشاهد.

وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعاً لما ينطق.. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة واحدة، لأنها منبثقة من حياة)^(١).

وذكر صاحب الحلية عن مالك بن دينار قوله: (الصدق والكذب يعتركان، حتى يخرج أحدهما صاحبه، وإن الصدق يبدو في القلب ضعيفاً كما يبدو نبات النخلة، يبدو غصناً واحداً، فإذا شققها الصبي ذهب أصلها، وإن أكلتها عنز ذهب أصلها. فتسقى فتنتشر، وتسقى فتنتشر حتى يكون لها أصل أصيل يُوطأ، وظل يُستظل به، وثمره يؤكل منها. كذلك الصدق يبدو في القلب ضعيفاً، فيتفقد صاحبه

(١) في ظلال القرآن، الآية (٤٤) سورة البقرة.

ويزيده الله تعالى، ويتفقدده صاحبه، فيزيده الله، حتى يجعله الله بركة على نفسه، ويكون كلامه دواءً للخاطئين.

ثم قال مالك: أما رأيتموهم؟ ثم يرجع إلى نفسه، فيقول: بلى، والله لقد رأيناهم: الحسن البصري، وسعيد ابن جبير وأشباههم، الرجل منهم يحيي الله بكلامه الفئام - الجماعات - من الناس^(١).

وذكر الذهبي في ترجمته لمحمد بن واسع رحمه الله تعالى، فقال: (روي أن قاصًّا كان بقرب محمد بن واسع، فقال: مالي أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والجلود لا تقشعر؟ فقال محمد: يا فلان ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب)^(٢).

الثمرة الرابعة:

حسن الخاتمة نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ حسنها:

وهذا من أعظم ثمار السريرة الصالحة، وما أقض مضاجع السلف، وأزعج قلوبهم مثل الخاتمة، والخوف من

(١) حلية الأولياء: (٣٥٩/٢).

(٢) السير للذهبي: (١٢٢/٦).

سوئها. ولكن الله عز وجل برحمته ولطفه وعدله وحمده لا يختم لصاحب السريرة الصالحة بسوء أبدا، وإنما يكون ذلك لمن فسدت سريرته، وباغته الموت قبل إصلاح الطوية، التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، وفي ذلك يقول الإمام عبدالحق الإشبيلي رحمه الله تعالى: (واعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه، ما سُمِعَ بهذا قط، ولا عُلمَ به والحمد لله، وإنما يكون ذلك لمن كان له فساد في العقد، وإصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، وربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، ويثب عليه قبل الإنابة، ويأخذه قبل إصلاح الطوية فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله)^(١).

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: (إن خاتمة السوء تكون بسبب دسيئة باطنة للعبد، لا يطلع عليها الناس: إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك، فتلك الخصلة توجب له سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار، وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة)^(٢).

(١) العاقبة في ذكر الموت: (١/١٣٣).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/٥٧).

وعلق الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى على ما ترجم له البخاري بقوله (باب الأعمال بالخوانيم) فقال: (ذكر فيه حديث سهل بن سعد في قصة الذي قتل نفسه، وفي آخره: وإنما الأعمال بالخوانيم....

وقال ابن بطال: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل، وإن كان هالِكاً ازداد عتواً، فحجب ذلك ليكون بين الخوف والرجاء، وقد روى الطبري عن حفص بن حميد قال: قلت لابن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً، فقلت في نفسي أنا أفضل من هذا. فقال: أمّنك على نفسك أشد من ذنبه. قال الطبري: لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر، لعل القاتل أن يتوب، فيقبل الله توبته، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء^(١).

الثمرة الخامسة:

تفريج الكروب وتنفيس الشدائد

قال الله ﷻ بعد أن ذكر استجابته ﷻ لأنبيائه ودعواتهم في تفريج الكروب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي

(١) فتح الباري: (٤٠١/١١) حديث: (٦٤٩٣).

الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٢٠﴾

[الأنبياء: ٩٠].

فمن كانت له سريرة سالحة في السراء والضراء نفس الله كربه، وفرج الله هممه، ورزقه من حيث لا يحتسب، قال الله **﴿عَلَيْكَ﴾** وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٢١﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال **﴿عَلَيْكَ﴾** وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ [الطلاق: ٤]، ولقد نجى الله **﴿عَلَيْكَ﴾** أنبياءه من الكروب، التي نزلت بهم بصلاح سرائرهم وسلامة قلوبهم من الشرك والمعارضات، وامتلائها بالتوحيد والتقوى والصبر واليقين، كما حصل لنوح عليه السلام وقومه الموحدين بنجاتهم من الطوفان، ونجاة إبراهيم عليه السلام من النار، وفلق البحر لموسى عليه السلام وقومه، ونجاتهم من فرعون وقومه، ونجاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش، ومن كثير من الكروب والشدائد التي مرت به عليه الصلاة والسلام، ونجاة يوسف عليه السلام من ضيق الحب والسجن بصبره وتقواه: **﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [يوسف: ٩٠]، ونجاة أصحاب الغار الثلاثة وانفراج الصخرة عنهم، بفضل إخلاصهم وصلاح سرائرهم والأخبار في ذلك كثيرة.

الثمرة السادسة:

الراحة ونزول الطمأنينة والسكينة في قلب من
صلحت سريرته، وثباته أمام فتن الشبهات والشهوات
وابتلاءات الخير والشر، وهداية الله ﷻ له إلى الحق والتوفيق
إلى الصواب عندما تختار العقول والأفهام. قال الله ﷻ عن
نبيه محمد ﷺ وهو في الغار: ﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ
اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي
الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩].

وقال عن نبيه ﷺ وأصحابه الكرام: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا
أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال عنهم أيضاً: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ
عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وكلما اتقى العبد ربه وصلحت سريره كان أقرب للحق
 وأسعد الناس باتباعه، قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
 وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (صاحب الرضى في راحة
 ولذة وسرور، كما في حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن
 النبي ﷺ قال: «إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في
 اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»^(١)^(٢).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فالسكينة فعيلة من
 السكون، وهي طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب،
 ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص
 مراتبها وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم
 الخليل وقد ألقى في المنجنيق مسافراً إلى ما أضرم له أعداء
 الله من النار، فله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك

(١) رواه الطبراني بسند ضعيف: (٢١٥ / ١٠)، والصحيح وقفه على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مدارج السالكين: (٢ / ١٤٥).

السفر! وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غَشِيَهُ فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا! وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداء ونجاء كلاماً حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعباناً مبيناً، وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعَصِيَّهِمْ كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لبنينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حُنَيْنٍ ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذاب - ولا سيما على الله - أقلق ما يكون، وأخوف ما يكون وأشدّه اضطراباً في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسول صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان. وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك... والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوسوس المعترضة في أصل الإيمان، ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوسوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان، لئلا تقوى وتصير هموماً وغموماً وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها، ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح، لئلا يطمح به مركبه، فيجاوز الحد الذي يعبر فينقلب ترحاً وحنناً، وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمع به مركب الفرح وتجاوز الحد فانقلب ترحاً عاجلاً^(١).

الثمرة السابعة:

الهداية للحق والسداد في المواقف:

صاحب السريرة الصالحة من أولياء الله ﷺ وأحبابه. ومن كان كذلك فالله ﷻ معه يسدده ويوفقه ويهديه للحق عند اختلاف الناس فيه، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) أعلام الموقعين: (٢/٢٠٢) باختصار.

ويقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ
النَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩].

يقول السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية:
(أي جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال
الصالحة المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على
وجه الإخلاص والمتابعة، (يهداهم ربهم بإيمانهم) أي بسبب ما
معهم من الإيمان يشبههم الله أعظم الثواب، وهو الهداية فيعلمهم
ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم
للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم،
وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم)^(١).

ولا تظهر الحاجة إلى هذه الثمرة من ثمار السريرة
الصالحة كما تظهر أيام النوازل والفتن، وذلك حينما تختلف
الآراء والمواقف، ويلتبس الحق بالباطل، وتتعارض المصالح
والمفاسد فيما بينها. فيوفق الله ﷻ صالح السريرة من عباده
لما اختلف فيه من الحق بإذنه ﷻ.



(١) تفسير السعدي عند الآية (٩) من سورة يونس.

الْفَضْلُ الْخَامِسُ

من أسباب صلاح السريرة

إن الله عَزَّ وَجَلَّ بفضلِه ورحمته إذا علم من عبده الصدق في طلبه وحرصه على إصلاح سيرته وتنقيتها من الشوائب، وفقه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الوسائل التي تصلح بها القلوب والسرائر، وأعانَه على الأخذ بها، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:

الوسيلة الأولى:

دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ والتضرع بين يديه في أوقات الإجابة لإصلاح السريرة وتنقية القلب من مفسداته، وهذه الوسيلة من أعظم وسائل إصلاح السرائر، حيث لا يملك القلوب وتثبيتها وإصلاح فسادها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مقلب القلوب ومصرفها، وهو المتفضل بالإيمان واليقين وزيادتهما، فالمتعين على المؤمن التوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وحده، وسؤاله ذلك منه وحده، فلا مثبت إلا من ثبته الله، ولا محفوظ إلا من حفظه الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، والمخدول من خذله الله.

يقول مطرف بن عبدالله بن الشخير رحمه الله تعالى:
تذاكرت ما جماع الخير. فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة، وإذا
هو في يد الله وَعَبْدِكَ، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله، إلا أن
تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير في الدعاء^(١).

وهذا هو هدي نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل البشر إيماناً وهدىً
وصلاحاً، وهو رسول الهداية والنور، ومع ذلك كان كثيراً ما
يدعو بطلب الهداية والسداد، وتثبيت القلوب وسلامتها
وإصلاحها وتطهيرها من أذناسها، وهكذا شأن أتباعه
والمحبين له ولستته، ومن أشهر الأدعية النبوية في هذا الشأن
ما يلي:

■ قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا
على طاعتك»^(٢).

■ قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه: «اللهم اهديني وسددني، اللهم إني أسألك
الهدى والسداد»^(٣).

(١) الإبانة، لابن بطة: (٢/ ١٩٥).

(٢) مسلم: (٢٦٥٤).

(٣) مسلم: (٢٧٢٥).

■ قوله ﷺ في دعائه: «رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجتي، واسلل سخيمة قلبي»^(١).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعود بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»^(٢).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخري التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»^(٣).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم حَبِّبْ إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرهه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين»^(٤).

(١) أبو داود: (١٥١٠)، والترمذي: (٣٥٥١) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٣٤٨٥).

(٢) مسلم: (٢٧١٧).

(٣) مسلم: (٢٧٢٠).

(٤) أحمد: (٤٢٤ / ٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (٢٣ / ٣).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»^(١).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسأل من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»^(٢).

الوسيلة الثانية:

معرفة الله عز وجل وتعظيمه وإجلاله ومحبته بمعرفة أسمائه الحسنی وصفاته العلی ولا سيما أسماءه ﷺ (السميع، البصير، الرقيب، الشهيد، العظيم، الكبير، الخبير، اللطيف، الرحيم، العزيز، الرحمن، الرحيم، الظاهر، الباطن، الغني، الكريم)، والتي تثمر في القلب الخشية والخوف والرجاء، والمحبة والتعظيم والإجلال، والتوكل والتسليم لأوامره ﷺ.

(١) النسائي: (٣/٥٤)، وصححه الألباني في صحيح النسائي: (١٢٣٧).

(٢) النسائي: (٣/٥٤)، وأحمد: (٤/١٢٥) ورجال أحمد ثقات، ورواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب سؤال الثبات في الأمر.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (فإن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته وجمع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلى وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلاً به سروراً ومحبة... وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره ومنه أبعد)^(١).

ويقول في موطن آخر: (علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولو ازم التوكل وثمراته ظاهراً. وعلمه بسمعته تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: (ص ١٦-١٨).

له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله وَعَلَى، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح. ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته، توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه. وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها^(١).

ويتحدث في موطن ثالث عن التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى: «الأول والآخر والظاهر والباطن»، فيقول: (والتعبد بهذه الأسماء رتبتان: الرتبة الأولى أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه. والمرتبة الثانية من التعبد أن يعامل كل اسم بمقتضاه. فيعامل سبقه

(١) مفتاح دار السعادة: (ص ٥١٠-٥١٣).

تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها، بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه، والتوكل على غيره... ثم تتعبد له باسمه الآخر بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى يُنتهى إليه. وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر. وأما التعبد باسمه الباطن فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبدو السرائر، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك، فإنه عنده علانية، وأصلح له غيبك، فإنه عنده شهادة، وزك له باطنك، فإنه عنده ظاهر^(١).

ويقول العز بن عبد السلام: (فهم معاني أسماء الله ﷻ وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات)^(٢).

(١) طريق المهجرتين: (ص ٢٥، ٢٦).

(٢) شجرة المعارف: (ص ١).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: (إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان ورؤحه، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه)^(١).

واختم هذه الوسيلة من وسائل إصلاح السيرة ببعض النماذج من سيرة السلف الصالح، الذين عرفوا أسماء الله عجل، وتعبدوا لله تعالى بها، وظهرت آثارها في إصلاح بواطنهم وظواهرهم.

لما حضر معاذ بن جبل رضي الله عنه الموت، قال: (انظروا أصبحنا؟ فأني فقيل: لم تصبح. فقال: انظروا أصبحنا؟ فأني فقيل له: لم تصبح. حتى أتني في بعض ذلك. فقيل: قد أصبحت: قال أعود بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت مرحباً، زائر مغيب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظماً الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر)^(٢).

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (باختصار): (ص ٤١).

(٢) حلية الأولياء: (١/٢٣٩).

عاد حماد بن سلمة سفيان الثوري، فقال سفيان: (يا أبا سلمة، أتري الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي، لا اخترت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي)^(١).

قال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني فقال: (لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت)^(٢).

وقال ابن خبيق: قال لي حذيفة المرعشي: إنما هي أربعة. عيناك ولسانك وهواك وقلبك. فانظر عينيك لا تنظر بهما إلى ما لا يحل لك، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا دغل على أحد من المسلمين، وانظر إلى هواك لا تهوى شيئاً يسخط الله ﷻ. فما لم تكن فيك هذه الأربع الخصال، فالرماد على رأسك)^(٣).

وعن حاتم الأصم قال: (تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذا نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذا سمع الله منك، وإذا سكت فاذا علم الله فيك)^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء: (٧/٤٤٩).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/٣٩٨).

(٣) صفوة الصفوة: (٤/٢٦٨).

(٤) سير أعلام النبلاء: (١١/٤٨٦).

قال الخطيب: (أنبأنا الجوهري، أنبأنا المرزباني، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى حدثنا أبو العيناء قال: لما حج المهدي دخل مسجد رسول ﷺ فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي^(١)).

وقال إبراهيم بن الأشعث: (ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى، حتى يرحمه من بحضرتة)^(٢).

وعن معمر عن أيوب عن نافع أو غيره: أن رجلاً قال لابن عمر رضي الله عنهما: (يا خير الناس أو ابن خير الناس. فقال: ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس، ولكنني عبد من عباد الله، أرجو الله وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه)^(٣).

(١) المرجع السابق: (٧/١٤٣).

(٢) حلية الأولياء: (٨/٨٤).

(٣) سير أعلام النبلاء: (٣/٢٣٦).

الوسيلة الثالثة:

قصر الأمل والزهد في الدنيا والتذكر الدائم للموت ولليوم الآخر، والاستعداد للقاء الله وَعَجَّلْكَ، ذلك لأن من أعظم ما يكدر القلوب ويفسد السرائر الركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، لأن القلب عندما يمتلأ بحب الدنيا وإيثارها على الآخرة لا تجد المواعظ إليه سبيلاً، بل تتوارد عليه الآفات والأمراض حتى تكدره، ويصبح مظلماً، لا يعرف معروفًا، لا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه. قد أصبحت الدنيا همه، يحسد عليها، ويحقد، ويشح ويبخل، ويحب ويغض، ويفرح ويحزن من أجلها، وكفى بذلك مرضاً وهلاكاً للقلب وإفساداً للسريرة. والعكس من ذلك حينما يمتلأ القلب بذكر الموت وما بعده من أمور الآخرة، ويتجافى عن الدنيا وزينتها الفانية، فإن القلب يصفو ويستنير، والسريرة تصلح، وتثمر لصاحبها الثمار اليانعة في الدنيا والآخرة.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده)^(١). ولكن كيف يتم للعبد زهده في الدنيا

(١) حلية الأولياء: (١/١١٧).

وإقباله على الآخرة؟ يجيب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على ذلك، فيقول: (لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها، وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا، فهي كما قال ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة ومضمحلة. فإذا تم له هذان النظران أثر ما يقتضي العقل إيثاره وزهد فيما يقتضي الزهد فيه^(١).

ويقول أيضاً: (فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا ومطالبها، وخذت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت

(١) الفوائد: (ص ١٧٧).

قلبه إلى ربه تعالى، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته. واستحدث همّةً أخرى وعلوماً أخرى، وولد ولادةً أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار، بعد أن كان في بطن أمّه، فيولد قلبه ولادةً حقيقية، كما ولد جسمه حقيقة. وكما كان بطن أمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار، فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزاً إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلى هذه الدار. وهذا معنى ما يذكر عن المسيح ﷺ أنه قال: «يا بني إسرائيل، إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرّتين».

ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها - فضلاً عن أن يصدقوا بها - فيقول القائل: كيف يولد الرجل الكبير أم كيف يولد القلب؟! لم يكن لهم إليها همّة ولا عزيمة، إذ كيف يعزم على الشيء من لا يعرفه ولا يصدّقه؟ ولكن إذا كُشِفَ حجاب الغفلة عن القلب صدّق بذلك، وعلم أنه لم يولد قلبه بعد.

والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى

الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح. فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم، لا إله غيره ولا رب سواه^(١).

ويتحدث في موطن ثالث عن قصر الأمل ودوره في الزهد في الدنيا وصلاح القلوب، فيقول رحمه الله تعالى: (فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معافاة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمرّ السحاب، ومبادرة طيّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهد من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنه قد ترحلت مُدْبِرَة، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء، يتصائبها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمس على رءوس الجبال،

(١) طريق الهجرتين: (١/ ٣٨١)، دار عالم الفوائد.

ويرى بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء
أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقاءها كمسافر خرج صاحبه
يتلقاه، فكل منها يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعا.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ
مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وقوله تعالى:
﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ
بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ [النازعات: ٤٦] (١). أ.هـ

وما أجود شعره رحمه الله تعالى حين قال في ذلك:

والله لم تخرج إلى الدنيا للذة

عيشها أو للحطام الفاني

لكن خرجت لكي تعد الزاد

للأخرى فجئت بأقبح الخسران

أهملت جمع الزاد حتى فات

بل فات الذي أهلك عن ذي الشأن

(١) مدارج السالكين: (١/٤٤٩).

والله لو أن القلوب سليمة

لتقطعت أسفاً من الحرمان^(١)

ومما له علاقة بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة المبادرة في تدارك أوقات العمر النفيسة، والحذر من إهدارها فيما لا ينفع، فضلاً عما يضر، فإن من الآفات التي تضر بالقلب ضياع الأوقات، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (وكل آفة تدخل على العبد فسببها ضياع الوقت وفساد القلب، وتعود بضياع حظه من الله وَعَلَى، ونقصان درجته ومنزلته عنده، وقال بعض الشيوخ: احذروا مخالطة من تضيع مخالطته الوقت وتفسد القلب)^(٢).

الوسيلة الرابعة:

مجالسة الصالحين أصحاب السرائر الصالحة، والبعد عن أهل الدنيا وأصحاب القلوب المريضة.
روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياذ الخيل في سبيل الله،

(١) نونية ابن القيم: (٢/٥٤٧).

(٢) رسالة من ابن القيم لأحد إخوانه: (ص ٣، ٤)، ت: عبدالله المديفر.

ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب الثمر)^(١).

وقال أيضاً: (اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله)^(٢).

ومن أنفع المجالس وأصلحها مجالس أهل العلم والتقوى لأنه بالعلم الذي لديهم تحرق الشبهات، وبالتقوى والورع وحسن السريرة تحرق الشهوات، وترى فيهم القدوات في خوفهم من الله تعالى، وتعظيمهم له ﷺ ولأوامره ونواهيه، فإذا زالت الشبهات بالعلم، والشهوات بالتقوى صلحت السرائر والقلوب. ومن علامة توفيق الله ﷻ للعبد أن يرزقه أصحاباً صالحين، تذكر رؤيتهم الله ﷻ. ولا يتم الانتفاع بمجالسة الصالحين إلا بمفارقة أصحاب السوء وأصحاب السرائر الفاسدة واعتزالهم، والحذر من كلامهم وكتاباتهم، التي تملأ القلوب بالشبهات والشهوات، ويدخل في ذلك الإكثار من قراءة سير الصالحين الأتقياء والحرص على الاقتداء واللاحاق بهم.

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٩).

(٢) المرجع السابق.

الوسيلة الخامسة:

الإكثار من ذكر الله عز وجل، والأعمال الصالحة، وترك

المعاصي.

وعد الله سبحانه عباده الذين يتقربون إليه بفعل ما يؤمرون به، وترك ما ينهون عنه، بالتثبيت والاستقامة على الصراط المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا ۖ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده. فكل ما كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيَّتًا﴾، فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق^(١) أ.هـ.

وكما جاء ذلك في الحديث القدسي الصحيح والذي فيه: «... وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...»^(٢) الحديث.

فمن هذا الحديث يتبين أثر الأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل، ولا سيما المخفي منها في حفظ الله ﷻ لعبده المؤمن الذي هذا شأنه، وذلك بحفظ جوارحه وقلبه، فلا تمتد إلى ما يسخط الله تعالى، ومن أفضل الأعمال الصالحة التي لها أثر في إصلاح السرائر كثرة ذكر الله ﷻ في اليوم والليلة، والثناء عليه ﷻ وتحميده وتسيححه وتمجيده واستغفاره.

(١) بدائع التفسير: (١٧/١).

(٢) البخاري، كتاب الرقاق: (٦٥٠٢).

فذكر الله ﷻ يذيب قسوة القلب ويزيل صدأه. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة القلب. قال: أذبه بالذكر^(١).

كما أن في ذلك أكبر العون من الله تعالى لعبده، وحفظه له من الزيغ والانحراف باطنياً وظاهراً، فقد جاء في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم....»^(٢) الحديث.

وأفضل الذكر قراءة القرآن وتدبره، حيث إن في ذلك حياة القلوب وصلاحها واطمئنانها.

ومن أسباب صلاح السريرة البعد عن الذنوب والمعاصي، لأن من عقوبات الذنوب مرض القلب وتكدره وفساده، لا سيما إذا تراكمت عليه الذنوب، وحصل الإصرار عليها، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (ومن عقوباتها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه...

(١) الوابل الصيب: (ص ٦٢).

(٢) البخاري، كتاب التوحيد: (٧٤٠٥)، ومسلم: (٢٦٧٥).

فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، لا دواء لها إلا تركها... ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار - فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب (١).

الوسيلة السادسة: محاسبة النفس:

قال الله ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال الرسول ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله ﷻ» (٢).

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم

(١) الداء والدواء: (ص ٧٨، ٧٩) باختصار.

(٢) الترمذي، باب الكيس من دان نفسه، وحسنه الترمذي.

في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] (١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً، وخرجت معه، حتى دخل حائطاً، فسمعته يقول وبينني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: (عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ. والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك) (٢).

وعن الحسن رحمه الله تعالى قال: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته) (٣).

وفي ضوء هذه النصوص والآثار يتبين لنا أهمية محاسبة النفس، وأثر ذلك في إصلاح الأحوال والقلوب، والتخلص من آفاتها، ومما يفسدها، كما يتبين لنا أن فساد السريرة إنما يحصل بترك المحاسبة والاسترسال مع النفس وهواها.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى عدة مصالح في محاسبة النفس، منها: (الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيوبها مقتها في ذات

(١) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا: (ص ٣٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا: (ص ٣٦).

الله تعالى. وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً... وقال يونس بن عبيد: إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة... ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه شيئاً، وهي قليلة المنفعة جداً^(١).

وهذه أبيات للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يحاسب فيها نفسه، ويزري عليها، وهو من هو علماً وزهداً وإمامة:

(بُنَيَّ أَبِي بَكْرٍ^(٢) كَثِيرَ ذُنُوبِهِ

فَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ نَالٍ مِنْ عَرْضِهِ إِثْمٌ

بُنَيَّ أَبِي بَكْرٍ جَهُولَ بِنَفْسِهِ

جَهُولَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنِي لَهُ الْعِلْمُ

بَنِي أَبِي بَكْرٍ غَدًا مُتَّصِدِرًا

يَعْلَمُ عِلْمًا وَهُوَ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (١/٧٨-٨٠).

(٢) (بني أبي بكر) يقصد ابن القيم نفسه، وأبو بكر كنية والده.

بني أبي بكر غدا متمنياً
 وصال المعالي والذنوب له هم
 بني أبي بكر يروم ترقياً
 إلى جنة المأوى وليس له عزم
 بني أبي بكر يرى الغرم في الذي
 يزول ويفنى والذي تركه الغنم
 بني أبي بكر لقد خاب سعيه
 إذا لم يكن في الصالحات له سهم
 بني أبي بكر كما قال ربه
 هلوع كنود وصفه الجهل والظلم
 بني أبي بكر وأمثاله غدوا
 بفتواهم هذي الخليقة تأثم
 وليس لهم في العلم باع ولا التقى
 ولا الزهد والدنيا لديهم هي الهم
 فوالله لو أن الصحابة شاهدوا
 أفاضلهم قالوا هم الصم والبكم^(١)

(١) الوافي بالوفيات: (١/ ٢٦١).

وهذا هو ابن الجوزي رحمه الله تعالى يحاسب نفسه، فيقول:
(تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب،
ووزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللطف الرباني، من بدء الطفولة
وإلى الآن، أرى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً عما
يوجب عقوبة، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان.

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت
سريعاً، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت، ولا يعتقد
معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، حتى يظن في ما
يظن في الفساق، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي، وقعت
بتأويلات فاسدة، فصرت إذا دعوت أقول: اللهم بحمدك
وسترك عليّ اغفر لي، ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما
وجدته كما ينبغي، ثم أنا أتقاضى منه مراداتي، ولا أتقاضى
نفسي بصبر على مكروهه، ولا بشكر على نعمة، فأخذت أنوح
على تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من
غير تحقيق عمل به.

وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر وما
حصل المقصود، فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما

نحت، فأعجبني نياحته فكتبتها ها هنا، قال لنفسه: يا رعاء تقومين الألفاظ ليقال: مناظر. وثمره هذا أن يقال: يا مناظر، كما يقال للمصارع الفاره. ضيقت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم المناظر، ثم ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب! هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شاب أفره منك فموهوا له وصار الاسم له. والعقلاء عن الله تشاغلوا بما - إذا انطوا - نشرهم وهو العمل بالعلم، والنظر الخالص لنفوسهم. أف لنفسي، وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة، إن نُظِرَتْ شَمَخَتْ، وإن نُوصِحَتْ تَعَجَّرَتْ، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة. توفر في المخالطة عيوباً تبلى، ولا تحتشم نظر الحق إليها. وإن انكسر لها غرض تضجرت، فإن امتدت بالنعمة اشتغلت عن المنعم.

أف والله مني، اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها، والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي

وأنا بين الأصحاب، والله إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني، كيف سترني وأنا أتهتك، ويجمعني وأنا أتشتت؟! وغداً يقال: مات الخبر العالم الصالح، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني، والله لأنادين على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء، ولأنوح نوح الثاقلين إذ لا نائح لي ينوح عليّ لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها، وغطاها من علمها.

والله ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهم اغفر لي كذا بكذا. والله ما التفت قط إلا وجدت منه ﷻ برّاً يكفيني ووقاية تحميني مع تسلط الأعداء، ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها. هذا فعله معي وهو رب غني عني، وهذا فعلى وأنا عبد فقير إليه، ولا عذر لي، فأقول: ما دريت أو سهوت. والله لقد خلقتني خلقاً صحيحاً سليماً، ونور قلبي بالفطنة، حتى إن الغائبات، والمكتومات تنكشف لفهمي.

فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا، واحرمانى لمقامات الرجال الفطناء، يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله، وشماتة العدو بي، واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت

الجوارح عليّ، واخذلاني عند إقامة الحجة، سخر والله مني الشيطان، وأنا الفطن. اللهم توبة خالصة من هذه الأقدار، ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار، وقد جئتك بعد الخمسين، وأنا من خلق المتاع، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم، فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي^(١) أ.هـ.

ومما يعين على المحاسبة أن يخصص المرء لنفسه أوقات يخلو فيها بنفسه، ويناجي فيها ربه عز وجل ويقلل فيها من الخلطة بالناس، ومن أفضل هذه الأوقات ما بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وما قبل صلاة المغرب حتى تغرب الشمس، وشيء من الدلجة في آخر الليل. وقد جاء في فضل هذه الأوقات وذكر الله فيها أحاديث، من أشهرها قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة»^(٢)، والغدوة أول النهار، والروحة آخره، والدلجة آخر الليل.

(١) صيد الخاطر: (ص ٤٦٤).

(٢) البخاري: (٣٩)، ومسلم: (٢٨١٦).

ومن أفضل أوقات الخلوة والمحاسبة اعتكاف العشر الأواخر من رمضان ففيها تتحقق المحاسبة، وفوائد أخرى تصلح بها القلوب وتتنقى بها السرائر، ومن هذه الفوائد:

■ التفرغ للنفس ومحاسبتها، وتفقد أخطائها ومثالبها ومعاصيها في ماضي حياتها، وأثر ذلك في صدق التوبة، وتطامن النفس وتواضعها، وذلك عندما يعلم المحاسب لنفسه أنها كلها عورة وضعف وخطيئة.

■ الشعور الشديد بالفاقة والفقر إلى الله عَجَّلْ، والضرورة القصوى لعونه سُبْحَانَ اللَّهِ وإغاثته وتوفيقه، والشعور بضعف النفس وخطر الاعتماد عليها.

■ فراغ القلب في الاعتكاف من مشاغل الدنيا ومشكلاتها، وأثر ذلك في ملء القلب بذكر الله عَجَّلْ، والإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور.

■ الحياة مع كلام الله عَجَّلْ والعيش مع كتابه العزيز، وما يحوي من ذكر للآخرة وما فيها، وذكر أنبيائه وأوليائه، وأثر ذلك في محبتهم والشوق إلى مصاحبتهم والتأسي بهم، وبما أصابهم في سبيل الله عَجَّلْ، وكيف صبروا وصابروا مع

- ما في القرآن من ذكر الله عز وجل وأسمائه وصفاته، والأجر العظيم في تلاوته والقيام به، آناء الليل وأطراف النهار.
- الانقطاع عن الناس وقلة الاتصال بهم وبكلامهم، وأثر ذلك في صفاء القلب وتقبله للمواعظ والزواجر، مع ما في ذلك من ترك لآفات اللسان التي قل من يسلم منها.
 - في الاعتكاف نقلة من حياة الترف مع الأهل والأولاد في المساكن المترفة والفرش الناعمة إلى حياة الاعتزال والمسكنة والفراش الحشن والأكل القليل، وهذا بدوره يؤثر في حياة المعتكف ونظرته للعالم، مع ما يصاحب ذلك من النوم القليل، فكل ذلك يؤدي بإذن الله تعالى إلى تقوية العزيمة وتنشيط النفس، لأن النفس تثقل مع كثرة الفضول من الطعام والنوم والكلام والخلطة.
 - في الاعتكاف فرص للاستزادة من الصالحات: كإتاف الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، لوجود التفرغ التام.
 - في الاعتكاف وحبس النفس في مكان معين مجال لتربية النفس على الصبر والمصابرة، واكتشاف قوة التحمل، والصبر عند النفس، وفي هذا ترويض للنفس وتوطئة لها

على النقلات المفاجئة - نسأل الله عَجَّلْ العافية والشفات - كما أن في ذلك تذكراً للصلحاء المبتلين، الذين يمضون في معتقلاتهم الأشهر والسنوات، فيتوجه بالدعاء لهم بالثبوت وسؤال الفرج لهم.

■ كما أن في جلوس المعتكف في خلوته ورؤيته نفسه وحيداً بعد أن ينفّض الناس ويرجعوا إلى بيوتهم، إن في ذلك أثراً بالغاً في تذكّر ذلك اليوم، الذي يوضع فيه العبد في قبره وحيداً فريداً، بعد أن يرجع عنه مشيعوه إلى أهلهم وبيوتهم، وهذا له أثر في تذكّر الموت والقبر ووحشته، مما يعود بالفائدة على النفس بالاستعداد لهذا المصراع، وسؤال الله عَجَّلْ حسن الخاتمة، وهذا كله يربي على الزهد في الدنيا، وأنها ظل زائل ومتاع الغرور.

■ في الانقطاع عن الأهل والأولاد في المعتكف مع الشوق إليهم، تذكير بالموت والانقطاع الطويل عنهم، وهذا بدوره ينعكس على بذل الجهد في إصلاح النفس والأهل، لعل الله عَجَّلْ أن يجمع الشمل في جنات النعيم، التي لا ينفد نعيمها ولا يفترق أهلها.

■ في الاعتكاف تعود على أعمال فاضلة، يحصل فيها التفريط غالباً عند الكثير: كأداء السنن الرواتب، والصف الأول، والطمأنينة في الصلاة، وأداء الأذكار جميعها، وذلك لعدم المشاغل والمشكلات التي تصرف المصلي عن هذه الفضائل أو بعضها، ولعلها أن تكون ديدنه بعد الخروج من المعتكف.

■ في الاعتكاف يحصل محاسبة النفس في علاقتها بالخلق وحقوقهم، بداية من الوالدين والأقارب والتقصير الحاصل نحوهم، وكذلك حقوق الآخرين، وما يحمل في القلب نحوهم، هل هو النصح والمحبة أم الغش والحقد والحسد. وأكتفي بهذا القدر من منافع الاعتكاف، ذكرته هنا بمناسبة الحديث عن محاسبة النفس.

الوسيلة السابعة: الدعوة إلى الله عز وجل والجهاد في سبيله:

إن في ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لتزكية النفوس ومحاسبتها وتفقدتها، حتى لا تقع في التناقض والاضطراب، ذلك أن الداعية إلى الله عز وجل وهو يدعو الناس إلى الخير وينهاهم عن الشر يبدأ

بنفسه وإصلاحها، حتى لا يكون من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهذا باب من أبواب النفاق، وبذلك يسعى الداعية لإصلاح باطنه، ليكون متوافقاً مع ظاهره، وفي هذا إصلاح للسريرة، وكذلك الحال في الجهاد في سبيل الله ﷻ، فصالح السرائر فيه أعظم وأكثر، إذ إن المجاهد قد عقد العزم على بيع نفسه لله ﷻ، ولا يصح البيع إلا بنقاء السريرة وإخلاص الجهاد لله ﷻ، ففي الجهاد تربية على الإخلاص، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، واليقين وصدق التوكل على الله ﷻ، والخوف منه وحده، وهذه كلها من مقومات وموجبات السريرة الصالحة. ولا تبلغ هذا الأعمال القلبية ذروتها في النفس إلا في ذروة سنام هذا الدين، ألا وهو الجهاد في سبيل الله ﷻ.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وفي الجهاد أيضاً حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية... وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود)^(١).

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨ / ٤٤٢).

وقال أيضاً: (ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، وفيه سنام التوكل وسنام الصبر فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل)^(١).



(١) المرجع السابق.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له ﷺ على توفيقه وامتنانه بالفراغ من الكتابة في هذا الموضوع المهم، والذي يتعلق بالقلوب وصلاتها، أسأل الله ﷻ أن يجعله خالصاً لوجهه نافعاً لعباده، كما أسأل الله ﷻ أن يرزقني وإخواني المسلمين صلاح السريرة والعلانية، وأن يختم لنا برضوانه وجنته، إنه سميع قريب مجيب. وقد تطرقت في هذا الموضوع إلى أهميته وأهمية العناية بشأن البواطن والسرائر، وذكرت ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث والآثار، كما ذكرت فيه ما عَنَّ في الخاطر من علامات السريرة الصالحة، وبعض ثمارها في الدنيا والآخرة، كما ذكرت فيه بعض الأسباب والوسائل المعينة على إصلاح السرائر. وفي ختام هذه الدراسة أود ذكر بعض التنبيهات المتعلقة بإصلاح السريرة، ينبغي التنويه عليها:

التنبيه الأول:

الحذر من اليأس في إصلاح السريرة، ولا سيما حينما يحاسب الواحد منا نفسه ويفتش في قلبه، فيجد من الآفات

ما قد يدخل من خلالها الشيطان، فيخيل للإنسان استحالة الإصلاح، فيحصل اليأس والبقاء على سوء الحال، بل قد تزيد وتتفاقم الأمراض لعدم علاجها والسعي في التخلص منها، وهذا ما يريده الشيطان، فينبغي الحذر من هذا الأمر، وسد هذا الباب على الشيطان، والاستغاثة بالله وَعَجَّكَ فِي إِصْلَاحِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَمَنْ يَصْدُقَ اللَّهُ وَعَجَّكَ يَصْدُقَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا.

التنبيه الثاني:

إن العناية بالسرائر والبواطن لا يعني أبداً إهمال الأعمال الظاهرة وأعمال الجوارح، لأن الظاهر دليل على الباطن، فإذا صلح الباطن صلح الظاهر، وإصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن في الغالب، والإيمان قول وعمل، قول القلب وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح. وقد مر بنا في مبحث أسباب صلاح السرائر: أثر الأعمال الصالحة الظاهرة في إصلاح القلوب وتزكية النفوس.

التنبيه الثالث:

الحذر من الغلو والوسوسة في اتهام النفس ومقتها وذمها، وذكر آفات القلوب وإعلام الناس بها، بقصد الإضرار

على النفس وبيان حقيقتها، وأنها ليست كما يظن به الظانون من الخير. فالعبد يحمد ربه على الستر، ويستعين بالله عَلَيْكَ فِي إِصْلَاحِ سِرِّيرَتِهِ، وَشَأْنِهِ كُلِّهِ، وَلَا يَدْعِي مَا لَيْسَ فِيهِ.

ويفصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى المذموم من هذا الأمر والممدوح، فيقول: (سئل الحارث بن أسد عن علامات الصادق؟ فقال: أن لا يبالي أن يخرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يجب اطلاع الناس على اليسير من عمله.

وهذا يحمد في حال، ويذم في حال، ويحسن من رجل، ويقبح من آخر. فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهاره، ولا نقص عليه فيه، ولا ذم من الله ورسوله، ليكتم به حاله وعمله، كما إذا أظهر الغنى وكتم الفقر والفاقة، وأظهر الصحة وكتم المرض، وأظهر النعمة وكتم البلية. فهذا كله من كنوز الستر، وله في القلب تأثير عجيب يعرفه من ذاقه. وشكى رجل إلى الأحنف بن قيس شكاة، فقال: يا ابن أخي، قد ذهب ضوء بصري من عشرين سنة، فما أخبرت به أحداً.

وأما الحال التي يُذمُّ فيها: فأن يظهر ما لا يجوز إظهاره، ليسيء به الناس الظن، فلا يعظموه. كما يذكر عن بعضهم:

أنه دخل الحمام، ثم خرج وسرق ثياب رجل، ومشى رويداً. حتى أدركوه فأخذوها منه وسبوه. فهذا حرام لا يحل تعاطيه، ويقبح أيضاً من المتبوع المقتدى به ذلك. بل وما هو دونه، لأنه يغر الناس، ويوقعهم في التآسي بما يظهره من سوء.

فالملامتية نوعان: ممدوحون أبرار، ومذمومون جهال. وإن كانوا في خفارة صدقهم. فالأولون: الذين لا يبالون بلوم اللوم في ذات الله، والقيام بأمره، والدعوة إليه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، فأحب الناس إلى الله: من لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تأخذه في الله لومة لائم. والنوع الثاني المذموم: هو الذي يظهر ما يلام عليه شرعاً من محرم أو مكروه. ليكتم بذلك حاله. وقد قال النبي: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلل نفسه»^(١)^(٢).

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٧٢١)، والترمذي: (٦٧).

(٢) مدارج السالكين: (٣/١٧٨، ١٧٩)، (لا ينبغي للمؤمن أن يذلل نفسه)، صححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٢٥٤)، وفي صحيح الجامع: (٧٧٩٧).

التنبيه الرابع:

الحذر من الحكم على بواطن الناس من بعض أعمالهم وأقوالهم الظاهرة فإن ما في القلوب والسرائر لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقد يكون في قلب رجل من الصلاح والخير ما لا يعلمه الناس ولكن الله يعلمه، ونحن لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس إلا إذا ظهرت قرينة لا تحتمل اللبس من قول أو فعل يدل على فساد في الباطن. ولذا ينبغي للعبد أن لا يرى له فضل على أحد من المسلمين المستورين في أحوالهم، بمجرد أن يرى الإنسان من نفسه فضلاً في عبادة أو عمل صالح، فقد يكون عند المفضول خبيثة من عمل صالح لا يعلمها إلا الله ﷻ، وقد لا يكون عنده كثير عبادة ونوافل ولكن قام في قلبه من الإخلاص والإخبات واليقين والمحبة والخوف والرجاء ما ليس عند الفاضل، فيكون بذلك أقرب إلى الله ﷻ ممن فاقه كثرة في الأعمال، والمقصود أن يطامن العبد من نفسه ولا يحتقر غيره، فالعبرة بما في القلوب، وهذا لا يعلمه إلا علام الغيوب.

التنبيه الخامس:

تركز الحديث في هذه الدراسة على السرائر عند الأفراد، وهذا هو مقصد هذه الدراسة، ولكن يحسن التنبيه في هذه

الخاتمة إلى السرائر في إطار الدول والمؤسسات والطوائف والملل. فكم من الدول والطوائف لها ظاهر وباطن ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب، ولا سيما في واقعنا المعاصر، عصر اللبس والتضليل، حيث يبدي فيه أصحاب السياسات والملل الباطنة للناس ما لا يخفون من النفاق وخبث الطوية والعقائد الفاسدة، ولكن يأبى الله عز وجل إلا أن يفضح سرائرهم، ويبدي للناس خبث بواطنهم وكذبهم وتدجيلهم، بما يظهره ﷺ على فلتات ألسنتهم ومواقفهم، بما يقدره من أحداث وابتلاءات وفتن، يتميز فيها الخبيث من الطيب.

ومن أبرز هذه الطوائف الباطنية رافضة العصر المحترقين حقداً على المسلمين الموحدين، فإن من أصول مذهبهم التقية، وهي تعني أن يخفوا عقائدهم الباطنة ويظهروا خلافها، خداعاً للمسلمين، فأبى الله ﷻ إلا أن يفضحهم، ويكشف حقيقتهم وعقائدهم الباطنة للناس، وذلك بما يقدره ﷺ من أحداث وابتلاءات موجعة على أهل السنة في بلاد الشام وغيرها حيث كشفوا عن أقنعتهم، وظهر مشروعه الباطني في المنطقة، حيث تحالف رافضة إيران والعراق وحزب الشيطان في لبنان مع النصيرية لحرب أهل

السنة وإقامة دولتهم الباطنية في المنطقة. وهذا من الحكم البالغة التي يحمد الله ﷻ عليها في هذه الأحداث حيث زال اللبس عن المخدوعين بتقية الروافض وفي هذا خير عظيم. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

والمقصود التنبيه إلى سرائر وأسرار الدول والطوائف والمؤسسات التي تبطن ما لا تظهر، والتنبيه إلى خطرها والحذر من خداعها، ففساد السرائر عند الطوائف والهيئات الاجتماعية أخطر بكثير من فسادها على مستوى الأفراد، لأن فساد الطوية عند الفرد يكون في الغالب على نفسه، أما فساد الدول والطوائف فيتعدى إلى الأمة بأسرها.

التنبيه السادس:

أوجه في هذا التنبيه نصيحة إلى نفسي وإخواني الدعوة والمجاهدين في سبيل الله تعالى: بأن نعتني بإصلاح سرائرنا، وتفقدنا بين حين وآخر، والمسايرة إلى إصلاح ما فسد منها، وأن لا نجعل خلافنا في وجهات النظر سبباً في الفرقة والشحناء فإن في هذا دليلاً على فساد في السرائر، وهذا باب من أبواب الشيطان، وآفة من آفات القلوب، ولا سيما بين أصحاب المنهج الواحد، وقدوتنا في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ

وسلف الأمة الصالح، حيث اختلفوا في بعض المسائل ولم يتفرقوا، بل بقيت المحبة والألفة والاجتماع بينهم، متعاونين على البر والتقوى.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الاستقامة: (أن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد)^(١)، والبغي آفة من آفات القلب، وعلامة على فساد في السريرة. قال يونس الصدي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة)^(٢).

هذا إذا كان الخلاف بين أهل الحق والعقيدة الصحيحة، أما إذا كان الخلاف مع ملل الكفر والبدع المغلظة فهو متعين وممدوح، وكذلك ما يترتب عليه من المنابذة لهم والافتراق معهم.

وبعد...

فهذا ما من الله ﷻ به ويسره من الكتابة في هذا الموضوع المهم، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، فهو

(١) انظر الاستقامة: (١ / ٣١).

(٢) سير أعلام النبلاء: (١٠ / ١٦).

المان بذلك والموفق له، وما كان فيه من خطأ فمني ومن
الشيطان، وأستغفر الله عَجَّلْ منه، والحمد لله رب العالمين،
وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله
وصحبه أجمعين.

في يوم الاثنين ٦ / ١٢ / ١٤٣٣ هـ



فهرس الهجلد الرابع عشر

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
أهمية الموضوع	٩
• الفصل الأول:	
المقصود بالسريرة وإصلاحها	١٧
• الفصل الثاني:	
ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في العناية بالسرائر ...	٣١
أولاً: ذكر الآيات	٣١
ثانياً: ذكر بعض الأحاديث	٤٣
ثالثاً: ذكر الآثار	٤٩
• الفصل الثالث:	
من علامات صلاح السريرة وفسادها	٦١
١- الإخلاص والصدق	٦٢
أ) ابتغاء وجه الله والخلوص من الرياء	٦٦
ب) المحبة لعمل الخلوة والخبيئة الصالحة	٧٥
ج) موافقة الباطن للظاهر وعدم مخالفة السريرة للعلائية	٨٢
د) الخوف من أن ترد الأعمال	٨٩
هـ) الفرار من العجب وتزكية النفس	٩١
و) مجاهدة هوى النفس وجعله تبعاً للحق	٩٥
٢- الانشغال بالنفس وإصلاحها وترك ما لا يعني	١٠٥
٣- إذ رؤى صاحب السريرة ذكر الله عز وجل	١٠٧

- ٤- تعظيم الله عز وجل وتعظيم حرمانه ١١٠
- ٥- التصديق بالخبر والإذعان للأمر ١١٤
- ٦- أداء الأعمال الصالحة وترك المنهيات تعبداً لله عز وجل
محبة وخوفاً ورجاءً ١١٧
- ٧- التواضع للخلق والحق ١٢٢
- نماذج من تواضع السلف للحق ١٢٦
- نماذج من تواضع السلف للخلق ١٣٠
- ٨- محبة الخير لجميع المسلمين والحرص على اجتماعهم
والسلامة من الحسد ١٣٤
- ٩- العدل والإنصاف ١٤١
- نماذج من عدل السلف مع مخالفيهم ١٥٢
- ١٠- الصدق في الحديث والوفاء بالعهد ١٦٢
- ١١- صدق التوكل على الله عز وجل ١٦٣
- ١٢- كثرة ذكر الله عز وجل واستغفاره ١٦٣
- ١٣- الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... ١٦٤

• الفصل الرابع:

من ثمرات السريرة الصالحة

- ١- محبة الله عز وجل ومعيته لصاحب السريرة الصالحة ١٦٧
- ٢- قبول الأعمال الصالحة ومضاعفة الحسنات ١٦٨
- ٣- القبول بين الناس ومحبتهم له ١٧٨
- ٤- حسن الخاتمة ١٨٣

- ١٨٥ ٥- تفريج الكروب
- ١٨٧ ٦- الطمأنينة والسكينة والثبات
- ١٩٠ ٧- الهداية للحق والسداد في المواقف

• الفصل الخامس:

من أسباب صلاح السريرة

- ١٩٣ ١- دعاء الله عز وجل وسؤاله إصلاح السريرة
- ١٩٦ ٢- معرفة أسماء الله الحسنى والتعبد لله بها
- ٢٠٣ ٣- قصر الأمل والزهد في الدنيا
- ٢٠٨ ٤- مجالسة الصالحين أهل السرائر الصالحة
- ٢١٠ ٥- الإكثار من ذكر الله عز وجل ونوافل العبادات
- ٢١٣ ٦- محاسبة النفس
- ٢٢١ فوائد الاعتكاف والخلوة
- ٢٢٤ ٧- الدعوة والجهاد في سبيل الله تعالى
- ٢٢٧ الخاتمة : وفيها تنبيهات :
- ٢٢٧ التنبيه الأول
- ٢٢٨ التنبيه الثاني
- ٢٢٨ التنبيه الثالث
- ٢٣١ التنبيه الرابع
- ٢٣١ التنبيه الخامس
- ٢٣٣ التنبيه السادس
- ٢٣٧ الفهرس